

قَاهُ السَّالِم

تيمور لنگ

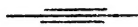


السينج

وكانت جيوشه تدك
معاقل آسيا فتمت
عروش أوربا، ويتلفت
ملوكها مذعورين ..
فقد كان يريد أن
يحكم الدنيا بأسرها ! ؟

السيد فنج

قَاهِرَ الْعَالَمَ «تِيمُورْلَنك»



الطبعة الثانية : نوفمبر سنة ١٩٥٧

الناشر : دار الفكر العربي . القاهرة

مطبعة السنة المحمدية

١٧ شارع شريف باشا الكبير - القاهرة

ت ٧٩٠١٧



السيف الذى أضاع العالم . . . ! ؟

[. . . وكانت جيوشه تدك معاقل آسيا فتمتهز
عروش أوربا ، ويتلفت ملوكها مذعورين . .
فقد كان يريد أن يحكم الدنيا بأسرها ! ؟]

قاهر العالم . . أم . . مدمر العامر ! ؟

تقديم الطبعة الثانية

العربي الجليل الأستاذ السيد محمد يوسف

عضو مجلس الأمة

لعل خير تسمية تنطبق على تيمور لنك هي : «مدمر العامر» لا «قاهر العالم» فإن الذين انحنوا لعاصفته ، وسكنوا لإعصاره ، مالبثوا أن أقاموا رؤوسهم ؛ فألقوه هباء مضي به الهواء ، يوم نزل به القضاء . فما له من دولة ، ولا صولة . وإنه لفشل أعظم الفشل لمخلوق ألا تذكر له غير السيئات ، حين يزول عنه النفوذ والسلطان . إذ أن للبطولات التاريخية مقاييس لم يحز تيمور لنك من مجموعها درجة التمجيد أو التخليد ، ومعلوم أن قهر الخصوم في المعارك ليس معناه النصر العزيز ، والفتح المبين . فإن فاتكا غشوما يدمر المقدسات ، وينتهك الأعراض والحرمات ، ويتسلى - وهو المسلم - فيصنع من جماجم البشر أهرامات ، غير جدير بأن يمضي به التسجيل بين الخالدين . نقول هذا ؛ لأنه مسلم لم يتأثر بتقاليد أسلافه الخالدين ، أمثال أبي عبيدة ، وخالد بن الوليد ، وطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع .

ونقول هذا ؛ لأنه جندي ، وللجندية تقاليدها التي لا تنزل بمستوى السيف والقوة ، إلى حضيض الإسفاف والهجمية .

وحسب مصر فخرا أن تففي في أن تقف في وجه «قاهر العالم» فترده عن حماها ، وإنه لموقف جدير بأن يبرزه المؤرخون لشباب هذا الوطن حتى يعرفوا أمجادهم وبطولاته .

ولن يشفع « تيمور لنك » ما شاد من مدينة سمرقند ، وما أسس من مسجده بها ، فإنه بنيان أسس على غير تقوى من الله ، فانهار به في نار

جهنم ، ولن يمجّد تيمورلنك بأنه عصامي ؛ فالعصامية التي يُباهى بها ،
هي العصامية البانية المتهتدة بالمُثل العليا ، والقيَم الشريفة .

ولقد استطاع المؤلف أن يحدّثنا عن معاركه ؛ بقلم الأديب ، وروح
المحارب الذي يدرك تقاليد الجندية الأصيلة ، فكان موقفاً في عرضه ،
وتحليله ، ونقده ، كما قال في ختام الكتاب :

« إن خوض عشرات المعارك ، وفتح البلدان ؛ لا يجعل للقائد قيمة ،
مادام قد تجاوز الحدود ، وهبط عن مستوى الجنود ، ونزل إلى حضيض
القتلة وقطاع الطرق ؛ وناهى الأعراس ، فإذا ما أردنا تمجيد تيمورلنك ،
فإننا نفعل ذلك في حدود أعماله العسكرية ، أى في نطاق العمليات الحربية ،
فقد كان ابن بجدتها ، وفارس حلبتها .

ولن يغفر ذلك كله لتيمورلنك ما فعل ، فقد كان ظاهرة شاذة ،
وشخصية على غير نظام وقياس ، ولا يستطيع أن يقف في صف القادة
الأطهار البواسل ، فهو لم يعتمد على البراعة الحربية ، وإنما أراد القتال
بروح السفاكين الهمج .

ولهذا فإن كل ما فعله تيمورلنك - طيلة حياته - قد انتهى بانتهاء
حياته ، ودالت دولة التتار ، لأنها قامت على الأطماع الهوجاء ، ولم تقم على
دعائم الحق والنظام ، والعدالة ، والحرية » .

ولا ريب أن المؤلف كان قوى التعبير والتصوير ، صادق الحكم
والتقدير ، بما له من قدرة فنية ، وخبرة عسكرية . فجاء كتابه - على
إيجازه - موضحاً لفكرته ، معبراً عن وجهته .

١٧/٥/٢٢

الالهتداء

إلى إخوتنا في الجندية والوطن العربي الكبير

رجال الجيش السوري الباسل

الذين شعارهم :

بيض صنائعنا سود وقائعنا

خضر مرابعنا حمر مواضعنا

السيد فرج



تیمور لنگ

قبل خمسمائة وسبعين عاماً من أيامنا هذه ، حاول رجل أعرج متواضع النشأة أن يجعل من نفسه حاكماً على العالم بأسره ، وقد حالفه التوفيق في كل خطوة همَّ بها ، فلم يعرف الهزيمة قط . . ولم يحظ بمثل سلطانه أحد .

وهناك على قبر في مدينة سمرقند - عروس العواصم في القرب الرابع عشر - نقشت العبارة الآتية :

[هنا المكان الذي استراح فيه العاهل المعظم والسلطان الأكبر ، والجندي القوي المهيّب . . السيد تيمور ، قاهر العالم] .

بدأ على رقعة أرض صغيرة ، في رفقة قطيع من الماشية ، في وسط آسيا ! فلم يكن ابن ملك كما كان الإسكندر المقدوني ، ولا خريج أكاديمية حربية كنباليون ، ولا كان وريث عصبية قبلية مثل جنكيزخان . . كما أنه لم يجد في بلاده شعباً موحداً كالشعب المقدوني أو الشعب الفرنسي أو شعب المغول ! وإنما هو الذي جمع الجيش ، ووحد الشعب ، وبسط نفوذه على آسيا وأوروباً ، وهزم جيوش العالم . . .

كان يدمر المدن ثم يعيد بناءها وفق هندسته الخاصة ، ويجعل

القوافل تمر من أوروبا إلى آسيا ، ومن آسيا إلى أوروبا حسب النظم التجارية التي وضعها بنفسه . ويجمع في يده اقتصاديات جميع البلدان فيرسم خطوطها الأساسية ويضع ميزانياتها العامة . . .

كان ينتصر بالرعب ، ويدمر قلوب أعدائه من الخوف قبل اللقاء . . . هدم المدن وحصد الأرواح وأقام أهرامات من جماجم خصومه . . . واندفع لغزو آسيا وأوروبا كالريح السوداء ، وكان التتار الذين يقودهم يقفزون وراء الغذاء والدماء والنساء ! ؟ .

وقد لقبه أعداؤه بالذئب الأغبر آكل الأرض ، بينما كان أنصاره يطلقون عليه : الأسد الغازي .

وعرفت امبراطوريته باسم « إمبراطورية تيمورلنك » فقد نمت على يديه ، وانتهت بنهايته .



عشرات المؤلفات . . . من جميع اللغات

كتب عن تيمور كثيرون من معاصريه ، ومن جاءوا بعده من مختلف البلدان ، شرقا وغربا ، وما زالت المطابع الحديثة - رغم مرور نيف وخمسة قرون - تصدر طبعات جديدة أنيقة ، في كل لغة ! . . ويضع كثيرون من المعقبين الحريمين تيمور لنك في القائمة الأولى بين عباقرة القادة في جميع الأزمان . . بينما يتحيز بعضهم فيعتبره أعظم قائد في التاريخ كله . . بغير استثناء ! .

وقد ظهرت كتب عربية قديمة في سيرة تيمور وأخبار القطار وأشهرها كتاب « ظفر نامه » وهو تسجيل لأعمال تيمور وتاريخ حكمه كتبها « نظام الشمس » العالم الفارسي ، وكذلك ظهر كتاب بنفس الاسم وضعه « شريف الدين » الذي رافق تيمور في كثير من رحلاته وغزواته ، وكتاب « عجائب المقدور » لابن عرب شاه ، كذلك حظيت المكتبة الغربية بعشرات المؤلفات عن تيمور لمؤلفين روس وإيرانيين ، وهنود وصين . . ومن كبار المؤرخين الذين خصوه بعنايتهم كلافيو الإسباني ، وبرونديو الإيطالي وفوريسار الفرنسي ، وشتيلبرجر الألماني ، وملتون الإنجليزي الذي اتخذ منه العلامات الغالبة على شيطانه في كتابه الأشهر « الفردوس المفقود » .

وامتازت المؤلفات التي وضعت عن تيمور بسرعة الذبوع وسرعة

الإنتشار وقد طبع بعضها في عدة لغات عدة طبعات ، ومن أشهرها كتاب هارولد لامب « تيمور لان غازى العالم » الذى طبع اثنتى عشر طبعة بين عامى ١٩٢٨ ، ١٩٥٥ .

وليس بغريب أن يكون تيمور موضع عناية المؤرخين والمراقبين الحريين إلى أيامنا هذه . . فقد كان من ناحية أعظم حاكم فى القرن الرابع عشر ، ومن ناحية أخرى أحد عظماء القادة فى جميع العصور . . وكان ملوك أوربا يكتبون إليه بعنوان « تمر لان العظيم »^(١) عاهل التتار ، وكان شارل السادس ملك فرنسا يصفه « بأنه أعظم الغزاة وأصلح الأمراء » . . أما تيمور نفسه فكان يوقع خطاباتة بقوله « أنا عبد الله . . تيمور » .

إمبراطورية تيمورلنك

لقد كان حلم تيمورلنك الذي سعى لتحقيقه هو السيطرة على العالم ، وقد فعل ، فكان أعظم حاكم في زمانه وسيد أكبر رقعة من المعمورة ، وقد سجل المؤرخون فتوحه وغزواته ، ومنهم من عاش في مقر قيادته وشهد معاركه ورأى الممالك التي فتحها واطلع على خطابات ملوك أوروبا إليه ، وكان من هؤلاء النبيل الإسباني جونزال جلافيو فكتب يقول :

(لقد غزا تمرلان أمير سمرقند كل أراضي المغول والهند ثم فتح بلاد الشمس وأخضع خوارزم وإيران وميديا وبلاد الحرير وأرض المرات كما غزا أرمينيا وأرض روم وبلاد السكرد ، ودمر دمشق وبابلون وبغداد ، وكسب معارك عديدة دون أن ينهزم في معركة واحدة ، ولما التقى بالترك هزم قائدهم الأشهر بايزيد وأخذه أسيراً . .) .
وقد رأى جلافيو في بلاط تيمور بسمرقند عشرات الأميرات من الأسر المالكة ، من أكثر بلاد العالم ، والتقى هناك بسفراء الصين ومصر وبلدان أوروبا .

ويعتبر المؤرخون أن تيمورلنك هو « آخر الغزاة العظام »

فقد أنشأ امبراطورية عظمت من تفكيره وتدبيره وحده ، ولم
يخض معركة إلا كسبها ، ولم يقدم على مشروع إلا كان النجاح حليفه ،
فهو لم يعرف الهزيمة قط ! .

وكتب عنه سير برسى سيكس يقول :

« لم يسبق لفاتح أسيوى فى التاريخ كله أن أعد مثل هذه الجيوش
الهائلة ومن ثم لا يصل لمدارج شهرته وتفوقه أحد . . وإن فعاله لترتفع
إلى مافوق مستوى البشر » .



هل كان أعظم من جنكيز خان^(١)

لقد أطلق المؤرخون على جنكيز خان وتيمور لنك « الفاتحان الكبيران » وكتب عنهما الكثيرون على محمل المقارنة ، فقد كان كل منهما عبقرية عسكرية وكفاية إدارية منقطعة النظير وإذا كان كثرة من المؤرخين يشيدون بحملات قيصر أو غزوات هانيبال ، أو استراتيجية نابليون أو براءة بسمارك فليس من شك في أن تيمور لنك وجنكيز خان والإسكندر المقدوني كانوا سادة الحرب في التاريخ كله .

وقد يكون هناك من قاد جيوشاً كبرى أو انتصر في معارك عالمية ، ولكن اتساع ساحات القتال ومدى أثر الغزوات لم يكن أبداً مثلما كان في عهد هؤلاء الثلاثة العظام . وهما مميّزان عن الإسكندر المقدوني الذي ورث عن أبيه فيلب عرشه وجيشه

(١) ولد جنكيز خان عام ١١٦٢ — وأسمه الأصلي تيموشين — وأبوه من القبائل المغولية الضاربة في صحراء الجوبي الممتدة شمالى الصين وقيل إنه ولد وفي يده قطعة من الدم — علامة على المستقبل الدموي الرهيب — وبدأ حياته الدموية بقتل أخيه لأنه اغتصب منه سمكة وشنق ابن عمه بنحيط رفيع من الحرير . . . ! وكان يلقي بنخصومه في الزيت المغلي ، وأغار على القبائل فقتل وسبي وغنم ؛ وغزا المدن فخرقها ولم ينزك زرعاً ولا ضرعاً ، وقاد جيوشاً كالوحوش الضارية ، لم يعهد لها مثيل في القوة والبأس ، وجعل لنفسه إمبراطورية عظمى واسماً خالداً بين عباقرة التاريخ حتى قال نابليون بوناپرت : لم يوفقني الله مثلما وفق جنكيز خان .

وشعبه .. أما جنكيز ، أو تيمور فلم يرث أحدهما عرشاً ولا جيشاً ولا شعباً .
وإنما صنع كل منهما بنفسه الجيش والشعب والسلطان .

أما نابليون فقد انتهى من حروبه الكثيرة إلى الأسر بعد
خسرانه معركة ووترلو وأما بسمارك فقد أغمض عينيه عن التوسع
وأوقف عجلة الحرب اكتفاء بألمانيا .

فإذا أخرجنا هؤلاء العباقرة قيصر وهانيبال والإسكندر ونابليون
وبسمارك من معترك المقارنة ، بقى أمامنا القائدان الأسويان : تيمورلنك
وجنكيز خان .

لقد جاء جنكيز إلى الوجود قبل منافسه في الشهرة التاريخية . .
وفي رأى بعض المؤرخين أن جنكيز لم يكن يتولى القيادة بنفسه في
أغلب معاركه وإنما كان يكتفى بوضع الخطط وتلقى الأنباء وإصدار
الأوامر من مقر قيادته بعيداً عن معترك الحرب ، بينما كان تيمور يقود
جيشه بنفسه ويتحمل تبعات القتال كله .

وكان لجنكيز وزراء من الصين وقادة عن عباقرة : سابوتى ،
شيبى نويون ، بايان ، وموهولى . . قادوا المعارك وأحرزوا النصر وثبتوا
أقدام المغول في كل ميدان .

واستطاع هؤلاء المعاونون المقتدرون أن يحملوا العبء وأن يثبتوا
الامبراطورية فعاشت بعد موت العاهل المغولى . . أما رجال تيمور
فلم يكونوا من المتفوقين أو ذوى المقدرة ولهذا فقد انتهت امبراطوريته
بنهايته .

وكان مغول القرن الثالث عشر ذوى طبيعة حادة وإقدام على الحرب منقطع النظير . . أما تتار القرن الرابع عشر فكانوا أقل فتوة وحمية ، وكانوا يفقدون نصف قوتهم فى غياب تيمور .

كذلك كان المغول يحاربون فى عدة جبهات وتذهب سراياهم تقاتل فى ممالك بعيدة تحت إمرة هذا القائد أو ذاك . . أما التتار فلم يعرفوا الحرب إلا فى جبهة واحدة ، ومعركة بعد معركة .

وكان جنكيزخان يضع مع قواده خطة المعركة وتظل دراستها معهم عدة أيام وربما أسابيع يقلّبون احتمالاتها ويقدرّون أحداثها حتى تنضج الخطة تماماً وتنضح أحسن الحلول ، وحينذاك كان جنكيز يوجه خير قواته وقواده إلى المعركة المناسبة فيضرب المركز الرئيسى بأشد ما عرف فى الحروب من عنف وبأس حتى يقضى القضاء التام على خصومه ويترك قلاعهم ومدنهم ويجعلها أثراً بعد عين . . أما التتار فكانوا أقل مقدرة وحماسة ، وبهذا كان تيمور هو مصدر القوة العظمى .

ولم يكن جنكيز يقدم على معركة لا يطمئن تماماً للفوز فيها فقد كانت حاسته الاستراتيجية متنبهة للغاية ، وكان بارعاً فى تفادى العقبات والمشكلات . . أما تيمور فكان يقبل المعركة كما هى ويواجه العقبات ويتغلب عليها . . كان مثل نابليون يسير على تعبئة كاملة واستعداد لكافة الطوارئ والمفاجآت . . وكان يعتمد على أنه

يستطيع أن يفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب ، ويكسب المعركة دائماً .

ومهما يكن من أمر هذه المقارنات والمفاضلات التي يعتز بها بعض الهواة أو المؤرخين فيقدمون قائداً على آخر ، فإن الفائدة المؤكدة إنما تكون بمراجعة ظروف كل قائد ومعاينة صفاته ومزاياه ، وما كان يمكن أن يعمل لو كان في مثل ظروف الآخر ، وطبيعي أن مثل هذا الحيز لا يتسع للإفاضة في التنقيب عن أعظم القادة ، فالموضوع الأصيل هو التحدث عن تيمور لك . . فلنذهب إليه ! .

السيف الذي أضاع العالم

تبدأ سيرة تيمور في عام ١٣٣٦ ، بالمدينة الخضراء جنوبى سمرقند ، فى بلاد ماوراء النهر - من أملاك ورثة جنكيز خان - وقد أهمل الأحفاد فى العناية بملكهم وانصرفوا إلى ملاذهم وقنعوا بما هم من رفاهية فاضحل نفوذهم وتركوا للولاة المحليين السلطة الحقيقية إكتفاء بما كان يرفع إليهم من أموال وخيرات .

وقد وصفت بلاد ماوراء النهر بأنها « أخصب بلاد الله وأكثرها خيراً وفقهاً وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين ، وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدرأ ، وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعرف وضيافة وتعظيم لمن يفهم .. » .

كانت الولاية « ترانسكانيا » يمر بها طريق التجارة الاسيوى من غرب آسيا إلى الصين يحكمها أمير أعور يدعى « كوزجان » كان حاكماً شديداً البأس فقد إحدى عينيه فى القتال ، وقد تمكن بخدائه وقوته أن يصير حاكماً بأمره .

أما المدينة الخضراء ، فكانت أجمل وأزهى مدن الولاية وكان كبير شيوخها « تراجى » سيداً ورعاً منقطعاً للصلاة والعبادة زاهداً فى الدنيا ، وقد رأى ذات ليلة فيما يرى النائم أن عرباً مهيباً أعطاه

سيفاً ، فلما لوح به في الهواء أضاء الدنيا بأسرها .

فذهب الشيخ في الفجر إلى أحد أولياء الله وقصّ عليه رؤياه ،
فأنبأه بأن الله سيبه غلاماً زكياً له مضاء السيف ، وأنه سيظهر العالم كله
ويفتح القلوب للإسلام وينقذ العالم من الهمجية والضلال .

وعندما وضعت زوجته طفلها أخذته إلى وليّ الله فألقاه يقرأ
القرآن الكريم فاختر له اسم « تيمور » أي حديد ، وقد اشتهر فيما بعد
باسم تيمور لنك^(١) لما أصيب بسهم في قدمه خلال إحدى معاركه
فلم يعد يسير إلا عرجاً .

واشتهر عند الفرنجة - وفي مراجعهم - باسم Tamarlane تارلين .

الأب .. والابن

نشأ تيمور في بيت صغير خشبي تختلط فيه الماشية بالسكان .
وكان أبوه رجلاً متديناً يقضى وقته في تلاوة القرآن . وقد عزف عن
الدنيا وآثر العبادة وكان لا يفتأ يحدث ابنه عن الله والإسلام والدنيا
والوطن .. فأحاطه بالكثير .

قال له والده وهو يحدثه عن بلاده « لقد شرع جنكيزخان في
السيطرة على العالم فبلغ مراده ثم توفاه الله ، فانقسمت امبراطوريته إلى
أربع مناطق بين أولاده الثلاثة وأولاد ابنه الأكبر - الذي مات
قبله - كما يحدث في التركات الخاصة ! فكانت بلادنا من نصيب ابنه
شاجتاي الذي أهمل أولاده في ملكهم وانصرفوا للهوهم ومجونهم
تاركين والياً من قبلهم يدبر الأمر ويرفع إليهم الأموال والتمرات » .
وقال يحدثه عن دين الله « إنني يا ابني أعبد الله وأصلي على
رسوله وأحترم الأولياء الصالحين والدراويش ، وعليك يا بني أن
تتمسك بمبادئ الإسلام الخمس : الشهادة - الصلاة - الصوم -
الزكاة - الحج » .

ثم حدثه عن الدنيا فقال له : إنها دنيا براق ظاهرها جميل وباطنها
رديء فهي أشبه بوعاء ذهبي مملوء بالحيات والمقارب !

ونشأ تيمور متأثراً ببساطة أبيه ونظراته في الحياة ولكنه كان مطبوعاً بطابع عصره وميزات شباب جيله : الفروسية والصيد والمباراة .. فكان يتلو كتاب الله ويرتاد الجوامع ويجلس إلى الأئمة يستمع إلى التفسير والحديث ، وكان أيضاً يعتلى صهوة جواده فيسبق أقرانه ويذهب إلى الصيد فيبرز رفقاءه ويشارك في مباريات البولو أو الفروسية أو القتال فإذا هو سيد الحلبة ، وصاحب قصب السبق .

وكان قوى البنية بهي الطلعة طويل القامة عريض المنكبين كبير الرأس لامع العينين يصوبهما في محدته فيسيطر عليه بنظرته وصوته الخفيض العميق وحديثه الرتيب وثقته بنفسه ورزاقته .

وكثيراً ما روى تيمور في حلقة الجامع يستمع إلى الشيخ ، وفي مجالس القوافل ينصت إلى نوادر التجار وأخبار القتال ، وكان — وهو في سن السابعة عشرة — كثير الصمت مغرمًا بالوحدة فيترك أصحابه إلى مكان قفر ، يسرح النظر في الأفق البعيد ويرسل الفكر وراء المجهول .. كأنما كان يستطلع البلاد المجاورة والعالم الذي سمع عنه ، أو كان يستشف المستقبل الذي ينتظره .. أو يفكر في الطريق الذي سوف يسلكه .

وهكذا ترى أن الإبن قد تأثر بالأب ، وقد تأثر بالبيئة ، وراح يصنع نفسه بنظراته الخاصة ومزايه الموهوبة وأفكاره الخصوصية .. وشرع يذرع الطريق .. فقد عرف أن لكل إنسان طريقه !

القائد الصغير

استخلص تيمور عدداً من أصحابه ولداته بعد اختبار وتمحيص فصارت له فرقة من الفرسان الشجعان ذوي الإخلاص والحمية وبدأ يحبب معهم المدن والقفار المجاورة واستطاع أن يقطع على صهوات الخيل ألف ميل في الجبال والوهاد حتى وصل بعد أسبوعين إلى مضارب الأعراب حيث نزل في ضيافتهم يستمع إلى أحاديثهم ومغامراتهم وأخبار التجار ونوادير الترحال ، ويلعب معهم الشطرنج .

وفكر القائد الصغير . . في أمر كبير .

كان قد اختلف مع عمه حاجي برلاس زعيم القبيلة ، فهجر تيمور بلده ورحل إلى « سالى ساراي » وفكر في أن يذهب لمقابلة الحاكم رأساً ، وهو الأمير كزجان حاكم سمرقند .

وانتقى جوادين من خيرة الجياد واصطحب معه خادمه القديم عبد الله .

ورحب الحاكم بالفارس الشاب وأعجب بمنطقه وألمعيته ، ووضعه تحت التجربة . . وهناك سلطت عليه العيون والأذان ليعلموا مبلغ فروسيته وشجاعته وإخلاصه . . وبدأ هو يتطلع لتنظيمات الجيوش ووسائل التدريب وفنون الحكم .

وحدث أن أغار بعض المرتزقة على الحدود وجمعوا بعض الجياد ليهربوا بها ، فرأى الحاكم فرصة عملية لاختبار تيمور فاستدعاه وعهد إليه بالمهمة على رأس فرقة من الشبان الفرسان وسرعان ما انطلق تيمور واستمر نصف اليوم على صهوة جواده في سرعة فائقة حتى لحق بالمغيرين فأحاط بهم واستولى على مغانمهم وعاد بها إلى أصحابها فكافأه الحاكم وأهداه قوسه الخاصة وصندوق سهامه ، وقر به منه وأولاه اهتمامه .

وظفر تيمور من حليفه الكبير كزجان بهديتين ثمينتين :

الأولى : زوجته الجميلة النبيلة الجاسى ختون أغا ، وقد اختارها له الحاكم بنفسه من ذوات قرباه .

الثانية : رتبة المجهاشى ، قائد الألف ، فأصبح تيمور قائداً بحق ! . . وبدأ يدرس القيادة عملياً وتحت إمرته المطلقة ألف جندى ! ودخل تيمور إلى ساحة القيادة تحت سمع التاريخ وبصره . وأدرك هو ذلك ، وعرف أنه في طريق أهدافه العظمى .

ولهذا فإنه حين رزقه الله بـغلام اختار له اسم « جهانجير » أى « مالك العالم » .

الجندي السياسي

كان التتار في القرن الرابع عشر لا يعرفون الاستقرار ولا يطبقون الثبات تحت إمرة الحاكم ولهذا فقد استمرت المؤامرات والانقلابات ولم يكن يحول دون ذلك إلا ملك قوى مهيب يحسب رؤساء العشائر حسابه ويلتزمون في ظله حدودهم . وقد كان طفلك خان العاهل المغولي هو الحاكم الحقيقي لبلاد ما وراء النهر وكان قد عهد لكاجان بالحكم وكان كاجان قوياً وقديراً ولكن كانت لديه استهانة أتاحت لخصومه الفرصة ، وأخيراً كلفته حياته . فقد خرج يوماً إلى الصيد بغير حرس فوثب عليه اثنان من رؤساء العشائر فقتلاه رمياً بالسهم .

ولقد كان الطبيب أن يتولى ابن جاك^(١) الحكم مكان والده ولكنه لم يطق العيش في جوامع الكائد والفطنة والأطماع فقد تكاثر الطامعون في الحكم واستشف الفتى الخطر فأثر السلامة ونزع عن البلاد ، وعلى أثر ذلك ظهر في سمرقند « حاجي برلاس » ، و« جالير » ، من رؤساء العشائر وأخذوا معاً بزمام الأمور .

وقد كانت قاعدة الحكم في ذلك الزمان أن اليد التي تقبض على

(١) روى أنه كان هناك عهد مبرم بين المغول والتتر على أن تكون ولاية الملك لأحفاد جنكيزخان من المغول ، أما التتر فيعين منهم الحكام أو القواد .

السيف هي وحدها التي تستطيع أن تملك بعضا الملك . . أى أن الحكم للأقوى .

ولم يرتض بقية الأمراء أن يكون حاجى برلاس وبايزيد جاليلار حكاماً ، فاتجه كل أمير إلى ولايته يحشد رجاله ويعد عدته لصد أى عدوان ، وعصيان أى أمر ، وتفرق التتار بين هذه المعسكرات وبقي تيمور فى المدينة الخضراء مع مئات من رجاله الأشداء الأوفياء .

عند ما اضطرت الحالة وأذرت بالخطر رأى طفلك خان أن يعيد الأمور إلى نصابها فجاء بنفسه إلى سمرقند ، وتضاربت أفكار الأمراء هل يخضعون لأمره أو يشقون عصا الطاعة .

أما تيمور : فاتخذ قراراً جريئاً قال : سأذهب للقاء الخان الأكبر ! وربما كانت اللباقة أجدى فى هذه الحلة من المناوأة والقتال فلم يكن من الحكمة فى شيء أن ينزل تيمور إلى المعركة قبل أن يستعد ، ولم يكن يعقل أن يواجه بعدة مئات من رجاله عشرات الآلاف من الجنود المنظمين القدماء فى خدمة عاهل المغول ! .

وكان تيمور فقد أباه وواراه التراب ، وودّع زوجته وابنه ليقما فى سلام عند أسرتهما ، واهتدى بآراء أبيه الروحى ، الشيخ زين الدين ، ثم أخذ يجهز الهدايا الفاخرة والعطايا الثمينة ليقدمها إلى الخان الكبير .

الجنرال تيمور

كان تيمور أسرع المفكرين والمنفذين ، فانطلق مع رجاله في أبهى ثيابهم الرسمية ، وسارت القافلة الضخمة من الجبال والخيول الحملة بما خف حمله وغلا ثمنه تذرع الطريق ، وقد توقفت عن سيرها اضطراباً مرتين عند ما فوجئت بطلائع قوات الخان ، واضطر تيمور إلى أن يغمر قواد تلك الطلائع بالكثير مما معه من هدايا وثمرات . وأخيراً بلغ مضارب الخان وأعجب الأمراء والقادة بتيمور ، فأدخلوه عنده بتقديم حسن فاستقبله مرحباً واستمع إليه معجباً واستطلع أفعاله ونظراته بنفس الإعجاب والتقدير الذي تلقى بهما هداياه ونفائسه .

وكان تيمور قدم نفسه للخان بأنه زعيم البرلاس متناسياً الحُكام الآخرين ، وكان رد الخان أن منح تيمور رتبة الجنرال « تومان باشى » أى قائد المائة ألف ، وأعطاه براءة حكم الإقليم .

وقد تعرض تيمور لمؤامرات الطامعين فى الحُكم مثل حاجى بارلاس وبايزيد جالير . . ولكن نجما من هذه المكائد وتعرضت البلاد لحرب أهلية فسارع الخان بنفسه لحسم الموقف فقتل بايزيد وهرب حاجى بارلاس حيث لقي مصرعه على أيدي قطاع الطريق .

وأقام الخان ابنه إلياس حاكماً على بلاد التتار بمعاونة الجنرال بيكيجوك . . كذلك عين « تيمور » أميراً لسمرقند .

تيمور الشريف

لم يكن تعيين تيمور حاكماً على سمرقند أمراً مطلقاً من الخان بل كان أمراً مقيداً . . . ذلك أن حامية من المغول استمرت محتلة تحت إمرة قائدها جنرال بيكجوك فشعر تيمور بغصة في حلقه زاد من مرارتها أن جنود الحامية أخذوا يعيشون في الأرض فساداً متاجرين في الأرزاق مستهينين بالأعراض مما أثار حفيظة المسلمين وجعل الشيخ زين الدين يجأ بالشكوى ويثير الشعور ضد المحتلين العابثين ، ولهذا رأى تيمور ضرورة وضع حد لهذه المساخر فكتب إلى الخان .. بينما تنبه الآخرون لموقف تيمور منهم فأرسلوا إلى الخان أن تيمور يشق عصا الطاعة وأنه بسبيل الخروج عن سلطانه ! فنجحت الوشاية ، وثار الخان وأرسل أمراً بإعدام تيمور الذي بلغته الأنباء مبكراً وأحس بالخطر مقبلاً فأسرع إلى جياده ومعه زوجته ونحو عشرين من رجاله الأوفياء الأشداء فجمعوا ماخف حمله ولاذوا بالصحرى . . . وبدأت مرحلة التشرذم والمغامرة والمشقة .

وراحت القافلة المشردة تشق طريقها على الرمال الحمراء من بئر إلى بئر ، فالماء حياة الصحراء ، وأخذت الليالي والأيام تطوى ساعاتها في بطاء بين الألم والأمل ، ولكن كل تعب ومشقة وظلام

كانت تبده ابتسامة « الجا » سلية الأمراء التي كانت تشع بنور
الأمل فتضىء لزوجها حياته ، وتوقظ روحه ، وتبعث فيه الأمل ،
كانت « الجا » خير معين لزوجها في أعصب ساعات الشدة واليأس ،
وكانت نفسها مؤمنة بأن حياته لا تنتهى هكذا فى التشرذ والفاقة بل
إن نجمة سيلمع ويضىء الدنيا بأسرها كما رأى والده فى منامه .

والتقى تيمور بشريد آخر كان بدوره أميراً على كابول ثم طارده
الخان . كان الأمير حسين شقيق الجا زوجة تيمور فانضم الشريدان
وتحالفا على ما كان فيه معه بلاء وقادا رجالهما الستين على أرض المغامرة
والمشقة يخرجان من مأزق إلى مأزق ، ويمرّقان من شرك إلى شرك حتى
فقدوا أغلب رجالهما ، ثم اتفقا على أن يبحث كل منهما عن مستقبله
فى طريق .. حتى لا يقعا معاً فى أزمة واحدة تقضى عليهما معاً ، ومن
ثم ذهب الأمير حسين وزوجته ورجاله ، وبقي تيمور وزوجته ورجل
واحد وحصانين وبعض المؤن . وابتسمت الجا . . وقالت : يا مولاي ،
إن هذه ليست النهاية !

وفى طريقه انضم إليه بعض الأعوان الفرسان المرتزقة ، ثم التقى
تيمور بكثرة من رجاله القدماء ، وقد خرجوا فى ثلاث فرق للبحث عنه
والانضمام إلى قيادته ، وقد أخذ تيمور يتسلل إلى سمرقند يتعرف
أحوالها ، ويجمع سراً بالتتار بغية القيام بثورة ضد المغول ، ولكنه

وجد أن الفرصة غير مواتية ، وأن المغول أكثر قوة ومنعة ، فآثر الرحيل إلى كابل ليلتقى بالأمير حسين ، وقطع مع جيشه الصغير خمسمائة ميل في ظروف جوية ومعنوية قاسية حتى التقى الحليفان ، وشرعا في العمل معاً ، وكانت أول مهمة لهما إنجاز أمير سبجستان وإخاد الثورة التي نشبت في بلاده ، وقد انتهى الأمر بخضوع هذه البلاد لتيemor والأمير حسين .

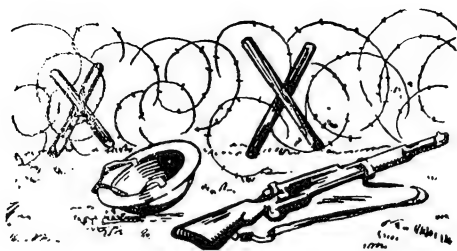
وفي خلال تلك المعارك أصيب تيمور بسهم في يده ، وآخر في قدمه اليمنى واستمرت عاهة قدمه ، فظل يعرج بها طول حياته ، ولذلك اشتهر باسم تيمور الأعرج .

ويبدو أن الأمير حسين قد اتخذ لنفسه القيادة دون تيمور ، فأنجبه من تلقاء نفسه على رأس قوة من أنصاره بغية الحصول على انتصارات ضد المغول ، فاندفع في مغامرة انتهت بهزيمة وتبديد جيشه ، وأستطاع هو أن ينجو بنفسه ، وأن يعود .

وكان تيمور قد استعاد قواه ، وحشد جيشاً من أربعة آلاف محارب ، وعزم على بدء المعركة ضد المغول ، فصعد شمالاً حتى بلغ نهر آمو (جيحون) وبعث عيونه تـكـشـف له مجريات الأمور ، فعلم أن بيكيجوك الحاكم العسكري الطاغية ينشر الرعب في المدينة ، ويسلب الأهالي أقواتهم .. فقرر تيمور أن يضرب ضربته !

ولما سمع القائد المغولى بما تفاهى إليه من أمر تيمور . أسرع بقواته إلى احتلال نهر الآمو ليمنع عبوره ، وقد خدعه تيمور متظاهراً بانصرافه عن العبور ، وأخذ يتلمس مخاضته حتى عبر النهر فى ليلة ظلماء ، وأصبح وراء جيش المغول ، فهزمه شرهزيمة ، وقبض على بيكيجوك فى الوقت الذى وصلت فيه الأنباء بموت طغلك خان ، فانصرف ابنه إلياس ليستولى على عرش المغول .

وتقدم تيمور إلى « المدينة الخضراء » فشدد عليها الحصار ، وفر حاكمها المغولى وحاميتها ، ودخلها تيمور . الذى دانت له بلاد « ما وراء النهر » .



بين التمار المغول

قويت شوكة تيمور ، وسارع بتنظيم قواته . فقد كان يعلم أن المعركة آتية لا ريب فيها بينه وبين المغول ، وخرج ينظم دفاعاته بعيداً عن الغرض - كما صار يفعل القادة في الحروب الحديثة - وجعل قواته قلباً وجناحين ، ولكل قسم قوة ضاربة وأخرى احتياطية ، وبذلك طبق مبدأ الحشد والاقتصاد في القوة ، ووضع خطته على أساس أن تكون القوة الرئيسية في الجناح الأيمن تحت قيادة الأمير حسين ، ووضع نفسه على رأس الجناح الأيسر .

وخيل لقوات تيمور أن الحظ تخطى عنها ، فقد أمطرت السماء مدراراً ، وأشيع أن المغول قد افتعلوا ذلك بقدرة السحر ! ؟ وتقوى إشاعة السحر هذه إلى حد قول بعض المؤرخين : إن المطر لم ينقطع إلا بعد مصرع أحد السحرة في ثلثي أيام المعركة ! كذلك تقوى بما لوحظ من استعداد المغول بالملابس الثقيلة والأغطية الواقية . . ! ؟

وقد ثبتت قوات تيمور في هذا المأزق ، رغم أن محلات دفاعهم صارت طيناً وماء ، ولكن روحهم المعنوية كانت عالية ازاء تصميم قوى وإدراك تام لأهمية المعركة وضرورة كسبها .

وبدأت المعركة بهجوم شديد من المغول جعل الجناح الأيسر يتراجع ، فدفع تيمور باحتياطيهِ ، ثم لمع في ذهنه خاطر جرىء .. فأصدر أمره بالتقدم في بحر من الوحل ، واندفاع غير نظامي ، بينما مرق تيمور كالسهم الخاطف إلى قلب الجيش المغولي ، وعلا صياح التتار ودقات الطبول ، فارتج على قيادة المغول ، وظنوا أن النصر لخصومهم .. فاضطرب أمرهم وشرعوا في الانسحاب .

وأخذ تيمور يرقب المغول من قمة تل مرتفع ، ويضع خطة استغلال النجاح ، ولسكن جناحه الأيسر تحت قيادة الأمير حسين كان بطيئاً في حركته مضطرباً في قيادته فاضطر تيمور إلى الانتظار في مكانه ! ؟ وضاعت منه فرصة تطويق المغول ، والقضاء على قواتهم الرئيسية التي بدأت تتجمع وتستعيد شأنها .. وتعود إلى القتال !

وأفلت زمام المعركة من يد تيمور بسبب أخطاء الأمير حسين واستهانته بأوامره وبدأ ضغط المغول يتخذ شكلاً عاماً على طول الجبهة ، واضطر تيمور إلى التراجع نحو سمرقند فوجد لها تدافع ببسالة فانحرف عنها ، واتجه إلى الوادي لإعادة تنظيم قواته ، وضم متطوعين جدداً .. وفي تلك الساعات الحاسكة فقد تيمور زوجته « الجا » على أثر مرض مفاجيء .. وقد كانت بمثابة الشماع الذي يضيء له في الظلمات .

وكانت سمرقند قد تصلبت في دفاعها وردت للمغيرين سهامهم إلى
نحورهم ، وأقبلت أفواج المتطوعين من بخارى وغيرها فانقلب ميزان
المعركة ، وانهزم المغول . . وارتدوا عن المدينة بخسارة كبيرة في الأنفس
والخيل والأسلحة ، ثم غادروا الإقليم كله .

وهكذا انتصرت روح الأهالي على أسلحة المعتدين ، وفازت
المقاومات الشعبية على تكتيكات الغزاة .

واحتفلت سمرقند بالنصر فتعالت التكبيرات من المآذن وصدحت
الموسيقىات وانتشرت الأعلام ، وأقيمت صلوات الشكر ، ودخل تيمور
والأمير حسين المدينة فاستقبلا بحماسة بالغة ، وصارا مالكين لزام
الأمر من حدود الهند إلى بحر أرال . . إلا أن تحالفهما الظاهر لم يكن
يخلو من أسباب الكراهية والخداع ! ؟

عملية تمويه

وبدأت المعركة بين تيمور والأمير حسين ، أى بدأت الحرب الأهلية لتقرير المصير وتوحيد الوطن الجديد تحت قيادة واحدة .
واستقر رأى تيمور على غزو « كرشى » ، وقد تم ذلك بعملية خداع رائقة .

فقد أذاع تيمور أنه سيتجه إلى الجنوب لمقابلة ملك الحيرة والتحالف معه على غزو الشمال ، ونقلت قوافل التجار هذه الأنباء واتجه تيمور فعلا إلى الجنوب ريثما يستقر في أذهان خصومه صدق الإشاعة . ثم انقلب في الليل فعاد واستخدم أساليب التمويه والخداع لإخفاء موقفه ونياته في الوقت الذى كانت حامية المدينة مطمئنة إلى أنه في طريقه إلى الجنوب . . فلم يكن ثمة استعداد أو ترقب ! .

وقام تيمور مع أحد رجاله بمهمة الاستطلاع لمعرفة منافذ المدينة وخطوط دفاعها ومدى استعداد حاميتها ، وعلم أن الحراس ينامون الليل غير مباليين . فأصدروا أوامره للتسلل الهادئ قبيل الفجر ، وعند ما أشرقت الشمس كان رجاله قد استولوا على القلعة والدفاعات وسلمت الحامية وأعلنت خضوعها . . وانضوى الجميع تحت لواء تيمور . وبدأ نجم تيمور في الصعود ، وطار صيته في جميع الأقطار

وانضم إليه رؤساء القبائل وأصحاب الزعامات وبعض كبار المغول
بينما أخذ أتباع الأمير حسين ينفذون عنه ، وأخذ نفوذه يتضاءل
كما يحدث لقطة من الثلج أمام حرارة الشمس المشرقة . . . وقد
اختلف الرواة في تسجيل نهاية الأمير حسين ، ولكن مما يذكر
لتيمور أنه أعلن رفع يده عنه ، أى أنه لم يأمر بقتله نظراً لما كان بينهما
من صلوات قديمة !؟

زعيم التتار

عند وفاة الأمير حسين اجتمع زعماء القبائل من حدود الهند إلى الأقاليم الشمالية ومعهم كبار رجال الدين وأخذوا ينظرون فيمن يولّ زعامة التتار ، وكان رأى بعض الرؤساء اتباع نظام جنكيز فى أن يولى الزعماء أحد سلالاته ، بينما رأى البعض أن تقسم البلاد إلى أقاليم يتولى كل قائد قسماً منها ، وقاوم أئمة المسلمين هذه الآراء . . وقال قائل : « إن سيف تيمور ليس أقل شأنًا من سيف جنكيزخان » .

أما المحاربون فقد رأوا فى تيمور القائد القوى الذى يستطيع توحيد الصفوف ، وتوجيهها لحماية الدولة الناشئة ، وتدمير المغول القابعين فى الشمال ، وأما المسلمون فقد اختاروه لأنه مسلم يحمل السيف والمصحف ، فيقضى بهما على المشركين أعداء الإسلام ، مغول جنكيزخان .

وفى اليوم التالى لهذا المؤتمر الجامع قدم تيمور فاستقبله الأمراء وزعماء القبائل ورجال الدين وبايعوه جميعاً سيداً وأميراً لبلاد ماوراء النهر . . وأقسم الجميع على المصحف أن يدينوا بالطاعة لتيمور . وكان هذا فى عام ١٣٦٩ ، وقد بلغ تيمور الثانية والثلاثين من عمره ! ؟

وشرع الأمير الجديد ينظم حكومته ، ويعين وزراء وحكام المناطق ، وعجب المؤرخون للمحارب البدائي وقد صار مشرعاً ومنظماً ورئيس دولة يجمع خطوطها الرئيسية جميعاً في يده .

وعرف تيمور أن مركزه محفوف بالأخطار ، وأنه لم يصل إلى كرسى الإمارة إلا بنفسه وعزمه وشقائه فكان عليه أن يعمل بسرعة وقوة للقضاء على خصومه وتأمين سلامة مملكته الجديدة فسارع بالقضاء على أتباع الأمير حسين الذين ناصبوه بالأمس العداء فهدم مساكنهم وقيد أسراهم وحرق ممتلكاتهم ، ثم أخذ يبعث السرايا ويشن الهجمات على مشارف بلاد المغول لكي تعود يبيع بعض الأسلحة وبعض الرؤوس . . ووضع خطة التدمير على رأس خطته الحربية .

وقرر أن خير وسائل الدفاع : الهجوم .

وعنى تيمور بالضبط والربط ، فعلم قواده وجنوده احترام النظام وسرعة تنفيذ الأوامر وأخذ يكافئ المحسن ويعاقب المقصر ويتسكر في العقوبات ، فالجندي الذي ثبت تحاذله في المعركة أو خوفه من القتال كان يؤتى به فيربط في حمار بحيث يصبح وجهه في ذيل الحمار ، ثم يمر هذا الشهيد الطريف في شوارع سمرقند عدة أيام حتى يراه الجميع ، فتكون فيه سخرية ، وعظة ! .

وكان شعار تيمور : الحكمة والشدة .

وقيل : إنه يحكم بالعدل و يسخو في المكافأة . .

ولكنه كان فظيماً في انتقامه ، ولا يكتفى بالنصر الحربى وإنما يؤكد بالقتل والهدم والحريق . . وبذلك يعلم خصومه بالنتيجة سلفاً .

وقد قرر أن يقضى على جيرانه الأقوياء بالحسنى !

فلمـا لم يمثلوا أرسل إليهم شواظاً من جهنم . وبدأ بأمر خازم سيد كيفا وأورجانج وبحر أزال ، وكان لا يزال على موالاته للمغول وتجاهله لتيemor . . فأرسل إليه تيمور وفداً يحمل هدايا ونفائس وطلب يد ابنته خان زادة الجميلة لابنه الأكبر جاهدجير .

ولكن الأمير حسين الصوفى فطن للأمر وظن أن تيمور يريد سحب سلطانه وسلب ولايته فأرسل إليه يقول « لقد غزت خازم بحد السيف ، فمن أرادها فليأخذها بحد السيف » .

وهكذا لم يعد معدى عن القتال ، وإذا رسالة أخرى تصل من الصوفى يقول فيها أميرها « لماذا نزهق أرواح الآخرين ونجرى الدماء مدراراً . تعال لملقاتى وجهاً لوجه ، فيجسم أحدنا الموقف » وحددت الرسالة الزمان والمكان .

وانطلق تيمور رغم معارضة أعوانه ، وبلغ المكان وطلب اللقاء . ولكن خصمه لم يكن عند كلمته ولم يجسر على الحضور ، فقال تيمور : « إن من ينقض وعده يستحق أن يحرم الحياة » وعاد ليقود جيشه

غير أنه سمع بمرض الأمير الصوفي ثم وفاته . . فانقضت سحابة الحرب ورضخت البلاد لأمر تيمور ، وصار ابنه حاكماً عليها وتزوج الأمير خان زاده .

ونظر تيمور حوله ثم اتجه إلى الجنوب . . إلى « هراة » التي كان يجلس على أريكتهما الأمير الشاب غيث الدين فدعاه تيمور إلى زيارة سمرقند . . فرد على ذلك بعمل استحكامات الدفاع وإعداد حاميات المقاومة .

وتحركت قوات تيمور جنوباً لغزو « الباب الحديدي » ، وبين دقات الطبول وصياح التتار تم غزو العاصمة فاندحرت الحاميات وفر الأهالي ، فطلب غيث الدين الصالح ، وأجيب إلى طلبه وأرسل إلى سمرقند . . ومعه البوابات الضخمة التي كانت تحمي هراة ، وأيضاً الكنوز والأموال .

وكانت « هراة » عاصمة متقدمة أعظم من لندن وباريس في ذلك الحين ، فكان أهلها نصف مليون ، بينما لم يزد سكان لندن أو باريس عن ٦٠ ألفاً ، وكان بها مئات المدارس وثلاثة آلاف حمام وعشرة آلاف محل تجارى ؟ !

وفي عام ١٣٦٩ كان تيمور قد صار قائداً وحاكماً وغازياً للمملكة بلغت خمسمائة ميل مربع فأخذ ينظر عبر مملكته الصغيرة ويرنو ببصره إلى العالم الفسيح ، واتخذ لنفسه لقب الخاقان الأعظم .

سمرقند

أصبحت مدينة سمرقند حاضرة الملك الجديد . بالنسبة لمركزها الحيوى واتساعها ووفرة أسباب الحياة والنشاط فيها ، فبارح تيمور مدينته « الخضراء » رغم ما كان لها فى نفسه من مكانة وذكريات ، وقد أقام على قبر والده قبة ذهبية عظيمة ، وهدم القصر القديم الذى أضاء فى سالف الأيام بجمال زوجته أولجا ، ثم أقام مكانه قصرأ شيقاً به حديقة جميلة وله بوابة فخمة عالية الذرى ، وقد صار القصر مشهوراً باسم « البيت الأبيض » يقضى فيه تيمور فصل الشتاء . وإلى جانب ما تميزت به سمرقند من مركز متوسط وخيرات وافرة فقد كانت لها شهرة تاريخية ، ففيها أقام الإسكندر المقدونى فترة من أزهى أيام مجده ، وفيها عسكر جنكيز خان عند كان يحصد الأعمار وينهب الأرزاق ، وقال عنها ابن بطوطة المؤرخ العربى الرحالة المشهور :

[هى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا . مبنية على شاطئ واد يعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزعة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات ،

وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبىء عن علوهم أهلها وإن كان أكثرها متهدماً ، وقد خرب كثير من عمارة المدينة ، ولا سور لها ولا أبواب عليها ، وفي دخلها البساتين .

وأهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة للغريب .

وبخارج سمرقند قبر « قثم » بن العباس بن عبد المطلب ، وهو الذى استشهد حين فتحها .. [.

وقد كانت سمرقند كثيرة الماء خصبة الأرض ينعم أهلها بأربعة مواسم فى السنة وتحيط بها السواقى تدر الماء وتزيد الخصوبة وتكثر الخيرات .

وكان استقبال تيمور فى سمرقند حافلاً عظيماً ، خرجت البلدة على بكرة أبيها لاستقباله ، وأخذ أهلها يطلقون على تيمور « الأسد الفاتح » ، « والملك العظيم » .

وما أن وطأت قدم تيمور عاصمة ملكه حتى مد لها يد الإصلاح فشق الشوارع الفسيحة وأقام القصور وأنشأ الحدائق ، وأقام القلاع على أنقاض الأحياء القديمة وجلب لها الصناعات وأرباب الحرف لىكى ينشئوا فيها صناعات وفنوناً وعمراناً ، وجعل اللون الأزرق لوناً رسمياً فاشتهرت سمرقند باسم « المدينة الزرقاء » ، وكانت موضع إعجاب سفراء الدول الذين ذكر المؤرخون أنهم كثيراً ما كانوا يتنزهون فى شوارعها النظيفة المستظلة بشجر الحور ،

وتزوج تيمور زوجة الأمير حسين « سارة خانم » كمادة ذلك العهد ، وهى تنسب لجنكيز خان ، وكانت موضع احترام الشعب وتقدير ذوى رأى .

وبلغت سمرقند عصرها الذهبى بتقدم العمران ونشاط التجارة وزيادة الخيرات ، وذلك كله بين أضواء الانتصارات التى أحرزها تيمور وبلغ بها حدود بلاد المغول ، حيث البقية الباقية من آثار جنكيز تعز باسمه وترتكز على جمع من سلالة الحاربيين الأشداء الذين ورثوا الاندفاع فى الحرب والإقدام على السلب والنهب ، وكانت عاصمة المغول « سارى » على نهر الفولجا - شريان روسيا الحيوى - ولها النفوذ على سياسة أوروبا الشرقية .



المعركة الكبرى

وكانت الدولة القوية الناشئة التي أقامها تيمور قد بلغت حدود الدولة الغاربية التي خلفها جنكيز . ولم تعد بينهما سوى حدود وهمية لا تدفع إغارة ولا تمنع التحرش والاشتباك ، ولهذا لم تكن عن الحرب مندوحة .

وقد حدث أن هرب أحد أمراء بلاد القرم من أتباع الخان ويدعى توكتاميش ، لجأ إلى تيمور يحتج به ، فبعث أوروس خان في طلبه لأنه كان قاتلاً وأنذر تيمور بالحرب إذا هو لم يسلم المجرم فرفض تيمور وأعاد وفد الخان برسالة مقتضبة قال فيها :

إن توكتاميش طلب حمايتي ، وليس بطوق تسليمه !

وكان معنى هذا أنه مستعد لمحاربة الخان . .

والعجب أنه لما مات الخان راح توكتاميش يطالب بالعرش وأيده تيمور حتى حقق أمنيته . . فلم يحمده إنقاذه لحياته ، ولم يحفظ له جميل مساعدته حتى وصل إلى سرير الحكم . . وإنما قلب له ظهر الجبن وقابل إحسانه بالإساءة ، وقرر غزو سمرقند ونهب مملكة تيمور . أخذ توكتاميش يعد العدة لمحاربة تيمور ، فانتهاز فرصة غيابه

في نواحي خراسان وأطبق بقوات جرارة على مملكته وراح يخرب ويدمر ما وسعته الفرصة ويشير القبائل ويشيع الفتنة ، وقد صدته قوات التتار التي كان قيادها معقوداً لابن عم تيمور « عمر شيخ » وما أن بلغت هذه الأنباء أسماع تيمور حتى ارتد مسرعاً ليأخذ بيده زمام الأمور ، وكان في قدومه ما يحمل عدوه على التفكير في أسلم الوسائل وأفضل الحلول .. فقرر توكتاميش الجلاء وقنع من الغنيمة بالإياب ، تاركاً خلفه طريقاً مخضبة بالدماء .

عاد تيمور إلى عاصمة مملكته فنفض عنها طابع الأسى وبعث في أهلها القوة ، وأعاد لجيشها الهيبة ، وقضى على الفتن التي رفعت رأسها في غيابه وسلمت ألويتها لعدوه ، وكافأ الذين أحسنوا الذود عن حمام وعاقب على الذين فرطوا في واجبه وأساءوا إلى ديارهم ، وقضى على كل معالم الهزيمة والفوضى .. وأخذ يستعد لرد الصاع صاعين !

وأقبل توكتاميش على محاولته الثانية يدفع جيشاً جراراً داخل مملكة تيمور الذي كان يتربص هذه العملية الخاطفة بخطة تجمع بين الجسارة والمفاجأة ، فلم يتجه إلى قلب العدو .. وإنما شغل المواجهة بقوات سائرة ، ودار حول جناح العدون في حركة تطويق فذة ! وشعر توكتاميش بأن قوات تيمور تحـاول قطع خط الرجعة فانكفاً منسحباً وارتد إلى حدوده مسرعاً .. وهنا برزت حصافة

تيمور وحسن تقديره للموقف . . فإنه لم يخدع بهذا الانسحاب ،
ولم يفكر في تعقبه ، وإنما آثر التريث وغالب زهوة النصر حتى يدرس
الموقف تماماً ويختار المكان والزمان المناسبين لقهر خصمه . .

وهكذا تفادى تيمور الشرك الروسى الذى وقع فيه - بعد عشرات
السنين - نابليون ، ثم هتلر !

وقد كان عليه قبل ذلك أن يقضى على ثورة بعض الولايات التابعة
له التى أغرت بها المعركة بشق عصا الطاعة . . فلما استتب له الأمر
 واجتمعت عنده القوة أخذ يرنو صوب المفازة الهائلة والأرض
المجهولة حيث يكمن العدو الأكبر . . وقال تيمور :
الآن . . إلى روسيا !

صحة روسيا

إن التاريخ يعيد نفسه .

.. نعم في نفس المفازة الثلجية القاسية ، وعلى ذلك الثرى العريض
قضت جيوش عديدة وانهزم قادة جبابرة ، هناك حيث تقف الطبيعة
في وجه المغير تعطل تقدمه وتشل حركته وتنزل به البلاء فيعود من
حيث أتى مثخنًا بالجراح .. أو لا يعود .

إن الحملة على روسيا عملية جريئة تدخل في عداد المخاطرة أو
المجازفة .. أو الانتحار ! وقد انخدع الكثيرون إذ قدروا الموقف من
ناحية عدد الجيوش وأسلحتها ومعداتها ولم يفتنوا إلى الأحوال الجوية ،
وإلى اعتماد الروس على طبيعة بلادهم ، وإلى خطط الروس التقليدية في
التراجع مسافات كبيرة مع تدمير المدن وإشغال الحرائق حتى تفعل
الطبيعة فعلها مع الغزاة ، وتجهزم للهزيمة النهائية .

هذا هو ما حدث لجيوش كثيرة أهمها وآخرها جيوش نابليون ..
وهتلر ..

وقد فكر تيمور في عدوه تفكير القائد الحصيف الذي يجيد
تقدير الموقف .

درس تيمور البلاد وطبيعتها ، وأهلها وجندها ، والخطط المنتظرة ..

ودرس أيضاً حالة قواته ، ومعداتنا ، وما يجب أن يكون عليه تموينها .

وكانت خطته تلخص في الآتي :

- ١ - اختيار أكثر الطرق ملائمة للحملة وأهدافها .
- ٢ - تقدير ماتحتاجه قواته من أسلحة ومعدات وموئل .
- ٣ - تجهيز الحملة الكافية لنقل المؤن والملابس الثقيلة والحاجيات التي لا غنى عنها .

٤ - الاشتباك السريع مع العدو في معركة قصيرة فاصلة .

٥ - تعبئة خيرة القوات والقواد لهذه المجازفة الكبرى .

وقد يقول قائل : ولماذا المجازفة ؟ . أليس الأفضل أن يقنع تيمور بمملكته الكبرى فلا يعرض قواته وشعبه ومستقبله لعملية غير مأمونة العواقب ، ويكفي نفسه مشقة الحرب المجهولة .. ؟

والرد على ذلك أن الحرب واقعة لا محالة .. وقد تعرض تيمور من قبل لهجوم عدوه مرتين فإذا لم يعاجله بضربة قاصمة ، فسوف يعيش مهدداً ، وتنكسر معنويات شعبه وجيشه إزاء هجمات العدو المتوالية .. ولهذا فإنه خير له أن يهاجم .. وأن يجازف !

ويمكن القول بأن تدبير تيمور لم يجعل حملته على روسيا مجازفة

غير معروفة العواقب ، وإنما جعلها خطة مدروسة يتوفر لها النجاح
لأمر ثلاث :

الأمر الأول : أنه أعد عدته لمهاجمة العدو في معركة حاسمة ، وكان
يقول « إن وجودي في مكان الموقعة ومعى عشرة من الجند خير من
وجودي بعيداً عنها ومعى عشرة آلاف » !

الأمر الثانى : أنه قدر أهمية المفاجأة ، بأن يبادر خصمه في وقت
ومكان غير متوقعين قبل أن يتمكن خصمه من حشد حشوده وإحكام
خطته .

الأمر الثالث : أنه لا يحرك قواته إلا وقد حمل لها كل ماتحتاجه من
أغذية ومؤن ومهمات .

خرج تيمور على رأس مائة وخمسين ألف فارس وراح يتقدم على
حذر ، من حصن إلى آخر من حصون الحدود ، حتى إذا اضطرت
الثلوج أن يتوقف ، أقام مكانه حتى انتهى فصل الشتاء وجاءت مع
طلائع الصيف رسل الصلح والسلام بعث بها خصمه السادر في غدره ..
وقال تيمور :

لما جاءنى أميركم هارباً وضعته فى حمايتى ومنعت يد الخان
أن تطوله ، وساعدته حتى وصل إلى عرشكم ، فلما أصبح قوياً تناسى
خدماتى له وأغار على بلادى التى آوته من قبل عندما كان شريداً
فأعمل القتل فى أهلها والفتنة فى ولاياتها والخراب والدمار فى مدنها

ثم عاد فأرسل جيشاً ثانياً لمحاربتى ، فلما شرعت فى التقدم للنار أرسلكم قائلاً : إنه يريد الصلح ، وأنا فى الواقع لأؤمن كثيراً بعهود أميركم ؛ فإذا كان يريد الصلح حقاً فما عليه إلا أن يرسل وزيره « على بك » للاتفاق والتفاهم .

ولم يأت الوزير . . وظهرت اللعبة !

وصممَ تيمور على العمل بسرعة . .

نظم قواته وسار فى تعبئة كاملة فى بلاد الأشباح ، وكان للناحية الإدارية نصيب كبير من عنايته . . وبذلك استطاع أن يقطع ١٨٠٠ ميل فى خمسة أشهر وتعتبر هذه الرحلة من أشق الرحلات التى قطعها جيش فاتح .

وعندما بدأ التلاقى كان تيمور يطبق مبادئ الحرب ، فاستخدم الحشد وخفة الحركة والمفاجأة واستخدام الإحتياط فى الوقت المناسب ، والمطاردة . .

كانت خطة تيمور تقضى بوضع قوات فى مواجهة العدو لتثبيته وشغله عن العملية الرئيسية ، وهى حركة تطويق جنبه الأيسر التى وفر لها القوة الضاربة والسرعة البالغة فطوت ذلك الجنب ، فلما شرع الروس فى مقابلة ذلك الهجوم بهجوم فى الناحية المقابلة لم يغير تيمور خطته وإنما دفع باحتياطيه لسد الثغرة وصدد الهجوم ، وبذلك فوت على العدو

فرسته ، فارتد على أعقابهِ وأخذ في الجلاء . . ولم يكتف تيمور بهذه
المعركة ، ولم يدع لخصمه الفرصة للانسحاب المنتظم بل عاجله بالمقابلة !
فلم يكن ممن يخذعون بارتداد العدو ، ولا ممن يرحمون عدواً منهزماً !
وكانت المطاردة جد قاسية على الخصمين ولكن تيمور أحالها إلى معركة
دامية ، مجزرة نهب فيما أرواح مائة ألف وذخائرهم وأسلحتهم وأقواتهم . .
و بعدها وافق على الهدنة ! ؟

وعلى نفس المسرح عادت المعركة بعد ثلاث سنوات ولنفس
السبب ! فقد نقض توكتاميش الهدنة ، فلم يجد تيمور بداً من وضع حد
نهائى لهذه الأحداث فهجم على العاصمة « سارى » وقضى عليها قضاء مبرما
وأحرق عدة مدن وعاد على أنقاض مملكة المغول بعد غزوة تاريخية
قضى فيها على خصومه قضاء أخيرا . . ودالت دولة المغول وأشرقت دولة
التتار . . أو دولة تيمور .

في بلاد فارس

كان تيمور متوقد الذهب دائماً اليقظة لا يفتأ يمد بصره فيما حوله من تخوم وأفطار ، يصرع خصومه ويغير على جيرانه ويوسع في مملكته الناشئة ويرقى أحوال شعبه ، ويدبر أموره جميعاً على محور القوة والحنكة ، وقد ظل دهنراً طويلاً لا يفكر في غزو دولة المسلمين احتراماً للناحية الدينية ، فلما ساء حكم الولاة وتدهورت أحوال البلاد ، غير تيمور فكره وجعل خطته الجديدة متجهة إلى فارس .

وقد كانت النكسة التي أصابت بلاد فارس هي التي أغرت تيمور بغزوها فقد كان الشاه ضعيفاً والأمراء يتنازعون السلطان وكان كرسى الحكم يفرى أصحاب النفوذ فينقلب الأمير على الشاه أو يصرع الأخ أخاه ، ثم يقول « لقد حققنا قسمة عادلة ، لى ما فوق الأرض ، وله ماتحت الأرض » ! ؟

واستغل حكام فارس بلادهم الغنية أسوأ استغلال وانصرفوا إلى أهوائهم ومصالحهم الشخصية دون ما تقدير للصالح العام ، وكانت هناك ثمة اتفاقية بين تيمور والشاه من نوع اتفاقيات الود وعدم الاعتداء وقد أحس الشاه بقرب منيته وخشى على بلاده من

الفرقة والضياع ، وتذكر أن تيموراً على استعداد فكتب إليه يسترضيه
ويذكره « بالمعاهدة » أملاً في حفظ بلاده لولى عهده ، قال :

[إن أقصى منأى أن تكون هذه المعاهدة بيدى يوم اتيامة لكي
لاتقف أمامى قائلاً :

إنك قد خنت العهد ، وحنثت بالوعد .

إننى لم أقم بعمل أخجل منه سوى ذلك العبث الذى انصرفت
إليه فى حياتى ، وهو من الأمور التى يضطر إليها المرء اضطراراً .

إننى أموت مطمئناً وأسأل الله أن يؤازركم ويؤيدكم ، وكل رجائى
أن تعطفوا على ولدى « زين العابدين » الذى سيجلس على العرش من
بعدى وأن تصلوا على روحى . .]

ومات الشاه . وكثر الطامعون فى عرشه . وانتهى كل أمير إلى
بلد يرفع عليها رايته ، فاستقل أحدهم باصفهان والثانى بشيراز . .
وهكذا كل يدعى لنفسه الحول والطول والاستقلال . . وكان
رسل تيمور يرقبون مجرى الأمور ، فلما بلغت أنباء التطاحن وأخبار
الفرقة قرر أن يهبط على الغنيمة فينال نصيبه . . وأى نصيب ! ؟

غزا تيمور أرض فارس فى عام ١٣٨٦ ، غزوة بغير قتال ! فقد
استقبله على مشارف أصفهان كبار أهل المدينة يعرضون عليه تسليم
بلادهم ، ويرتضون الجزية التى يفرضها ولكن حدثت بعض مناوشات

واشتباكات بين الأهالي والجنود ، فانتهرها تيمور فرصة سانحة تناسب أسلوبه المتهود في الغزو فافتحم المدينة وعصف بأهلها وأمر أن يحمل إليه كل جندي من جنوده رأس أحد الخصوم فحصدوا له سبعين ألف جمجمة صنع منها هرمًا هندسيًا بالغ الروعة ! ؟

وخضعت فارس لحكم التتار ، ودفعت الجزية ، وخطب باسم تيمور في الجوامع وعين من قبله واليًا عليها .

إمبراطورية تيمور

في عام ١٣٨٣ كان تيمور قد بلغ الخمسين من عمره وهو يحكم إمبراطورية واسعة الأرجاء نامية الثروة مترامية الأطراف ، وقد ذاع عنه لقب « الأمير تيمور » واشتهرت مملكته باسم إمبراطورية ما وراء النهر ، أو إمبراطورية تيمور .

وكان الفاتح الكبير كلما هم بمسير اندفع حوله رجاله كالريح الهوجاء لا تصمد أمامها الحصون ولا تثبت حيالها الجيوش ، فالتتار كانوا قوماً غير متمدينين ، الحرب شريعتهم والغزو مبتغاهم ، لا معنى للمعركة عندهم غير القتل والتدمير والسبي والغنائم ، وقد وصفهم ابن عربشاه ، فقال :
[كان جيش تيمور مؤلفاً من رجان توران وأبطال إيران ، ونمور تركستان وفهود سبجستان وصقور الدشت والخطا ونسور المغول وكواسر الحيتا وأفاعي خجند وئعابين ايدكان ، وهوام خوارزم وجوارح جرجان وعقبان صفغانيان ، وضواري حصار شادمان ، وفوارس فارس ، وأسود خراسان ، وضباع الجبل وليوث جازندران وسباع الجبال وتمساسيح رشمـدار وطالقان ، وأهل قبائل خور وكرمان وطلس أرباب طيالس أصبهان وذئاب الري وغزني وهمدان ، وأفيال الهند والسند وملتان وكباش اللور وثيران شواحق الفور وعقارب شهرزور وحشرات عسكر

عكرم وجندى سابور . . مع ما أضيف إليهم من أعيار الخدم وفواعل
التراكمة والأوباش والحشم وكلاب النهاب من رعا ع العرب وهمج
العجم وحنـالة عباد الوثن وأنجاس مجوس الأمم ، مما يكتنفه ديوان
ولا يحيط به دفتر حسابان [!؟] .

ومهما يكن فى هذا الوصف الغربى من مبالغات وتشبيهاـت
لاذعة ، فإن أحداً لا يستطيع أن يدفع عن جيش تيمور مالمصق به من
صفات الهمجية والوحشية ، وما اقترن بإغاراته واعتداءاته من حوادث
مشثومة وأعمال نكراء ترفع عن أصحابها صفة الإنسانية وعلامات
المدنية .

ولكن تلك الرقعة من السواد التى أحاطت بتاريخ تيمور لا تمنع
من النظر بعين التقدير والاعتبار لتلك الشخصية العالمية الفذة التى لمعت
فى الظلمة الحالكة وشقت طريقها فى الصخر والشوك ، وانطلقت من
النشأة المتواضعة إلى السيطرة العريضة والشهرة المدوية ، واجتمع لهذه
الشخصية من المواهب العسكرية والمزايا السياسية ، ما جعل لصاحبها
مكانته الثابتة فى التاريخ وإسمه الداوى فى قائمة العباقرة من جميع
العصور .

وقد برزت عبقرية تيمور العسكرية فى قيادته الحكيمة للجمهرة
همجية لا تعترف بالقواعد والأصول ، فحاض بها الأهوال ، ونازل
بها أعظم الجيوش فى زمانه وغزا الحصون المنيعـة ، وقضى على الممالك

العتيدة . . كما برزت عبقريته السياسية في إدارته لدفة الحكم وإشرافه على جميع الشؤون السياسية والاقتصادية والمدنية في إمبراطورية شاسعة الأرجاء مختلفة المذاهب متعددة الأجناس .

كان إذا غزا مملكة وأدخلها في طاعته عين عليها والياً من أبنائها يسوس أمرها في ظلال توجيهاته ومراميه ، يجمع له الجزية ويدين له بالولاء ، ويأخذ أبناء الأمراء إلى العاصمة سمرقند رهائن حرب فإذا ظهرت في بلادهم مؤامرات ، أو خيانات ، دفع هؤلاء الأمراء حياتهم مقدمة للانتقام .

وكان معنياً بترقية بلاده ومدنيتها ، وقد اشتهر عنه ابتكاره لنظام البريد واهتمامه بالمواصلات ، ففتح الطرق ، وأقام الجسور ، ومد أنابيب المياه ووضع الجرك والمكوس ، وجعل في الطرق الطويلة محطات للخيول والمياه .

وجاء وصف نظام البريد الذي ابتدعه تيمور في كتاب ابن بطوطة ، ومنه :

البريد صنفان : بريد الخيل ، و بريد الرجالة ، فأما بريد الخيل فيسمونه « الولاقي » وهي خيل تكون للسلطان أو الحاكم أو الأمير في كل مسافة أربعة أميال .

أما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد أو يكون أقل من ذلك إلى الثلث ، وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية

معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين
للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرة مقدار ذراعين
بأعلاها جلاجل من نحاس . فإذا خرج البريد من المدينة أخذ
الكتاب بأعلى يده والمقرة ذات الجلاجل باليد الأخرى وخرج يشد
بمنتهى جهده ، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا
له فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومرق بأقصى جهده وهو
يحرك المقرة حتى يصل إلى المحطة الأخرى . . ولا يزالون كذلك حتى
يصل الكتاب إلى حيث يراد منه ، وهذا البريد أسرع من بريد
الخليل ، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة من مكان إلى
إلى آخر ، وفقاً لرغبة الأمير أو الحاكم أو من يقوم مقامه] .

وجعل تيمور لجيشه نظاماً وقواعد وحدوداً لا يخرج عنها أحد ،
فكان « الضبط والربط » الذي عرفناه حديثاً هو الأساس الذي بنى
عليه جيشه فتحول الهمج إلى جند نظاميين يعرف كل منهم مكانه
في العمل وحدوده في المعاملة ، وكان الجندي يتناول راتباً معيناً ولا يسمح
له بالاعتداء على أحد أو التناول على غيره .

وكان التجار يدفعون الضرائب حسب تجارتهم ، فكان ذلك
من أسباب الدخل الوفير ، وكان أكثر القوافل في ذلك العهد تـفـد
إلى مملكة تيمور وتمّر من القسطنطينية إلى بلاد فارس فسمرقند فبلاد
الهند ومن البحر الأسود إلى خليج فارس إلى خراسان . . وبذلك

كانت طرق التجارة العالمية تحت ناظره ، وكانت وارداته تفوق واردات ملك فرنسا في عهده .

ومثلما اهتم تيمور بثئون التجارة كان معنياً بالزراعة وإصلاح أحوال الفلاحين ، فقد كان يعتقد أن الفلاحين هم مصدر الثروة ومنبع القوة للجيش والوطن .

وكان تيمور شخصية يحف بها الجلال وتحوطها الهيبة ، وكان يطيل المسكث بين حرسه الخاص الذي كان يبلغ خمسة وستين ألفاً من الرجال الشجعان ذوى البسالة والإخلاص ، وقد كان يجزل لهم في العطاء . . وكانت شخصية الجندي ترتفع فيه على شخصية الحاكم فقد شب على صهوة جواده ودان له الملك بحد سيفه ولذلك كان معروفاً أن تيموراً كثيراً التنقل وأن أكثر مكان عاش فيه هو ظهر حصانه .

إن الرجل الذى حنكته التجارب وصنعت له الأحداث الهائلة ظهر على مسرح التاريخ بسيفه وعقله فبهر الأنظار واجتذب تقدير المؤرخين والمراقبين بعظيم مزاياه وجلائل أعماله ، وقد عاشت عاصمته سمرقند سنوات ذهبية تنعم بترف الانتصار وملاذ الحضارة وخيرات التجارة العالمية التى كانت تمر بها من كل حذب وصوب ، وهى البلدة المتواضعة التى تسلمها تيمور صغيرة بسيطة بيوتها من الخشب والطين ، ففتح فيها الشوارع والميادين ، وأقام المباني وأنشأ الحدائق ، وجملها وزينها وأحسن

خلقها فصارت درة البلاد الأسيوية وكبرى مدن العالم ، وجلب لها
الصناع والفنيين والكتاب والعلماء ، وشيد الدور العمومية ، والجامع
ومراكز الاستعلام ومراصد الفلك ، ولم تلبه فتوحاته وغزواته عن
التقدم المدنى فحمل الرقى إلى بلاده والخير والجمال لعاصمته ، والمدنية
والحضارة لشعبه والذكرى الخالدة لبطولاته وفطنته وخططه وأعماله .

ثورات وغزوات

لم تكن حياة تيمور سهلة في أية مرحلة من مراحلها ولم يكن ميسوراً أن يستقر الأمن والسلام بعد أن امتدت أطراف امبراطوريته ولكنه كان مولعاً بالصعب معتاداً على المشقة لا تكاد الثورة تنشب هنا أو هناك حتى يطير إليها وسرعان ما يقضى عليها ويشدد في عقاب مضمريها .

فلما حدثت الشاه منصور نفسه أن يشق عصا الطاعة على تيمور ويرفع علم الثورة في فارس ويأخذ بزمام ملكها تحرك الأعصار إلى البلاد النائرة فلجأ الشاه إلى حصنه الحصين « القصر الأبيض » حيث أعد عدته لإقامة مديدة ودفاع لا قبل لأحد بتحطيمه ، فقد كان القصر بمثابة حصن منيع في قلب الجبال يصعب الوصول إليه لصعوبة المرتقى وضيق المسالك وتعذر استخدام أدوات الحصار ، كما أنه كان مزوداً بالمؤن والمياه وأسباب الحياة ، مما يجعله يصمد عدة سنوات ، وكانت الحامية التي تدافع عنه شديدة البأس واسعة الخبرة بشئون الدفاع وفنون القتال .

دارت المعركة بين المهاجمين والمدافعين وأخذت قوات تيمور تدور حول القصر الحصين تختبر مسالكه وتتكشف موانعه وتلقى

بين الحين والحين دفعات قوية من سهام المدافع يطرونهم بها في دقة وكثرة حتى تعرض الهجوم للاخفاق لولا دورة جديدة من دورات تيمور الموسومة بالجرأة والاندفاع ، ظهرت على أثرها ثغرة تدفقت منها القوات بغزارة ، فانهارت معنويات المدافعين واضطرب نظامهم وسقطت خططهم واستسلم القصر بمن فيه وقبض تيمور على الشاه منصور فقتله وقضى على رؤوس الفتنة وعادت بلاد فارس إلى قبضته القوية .

وأصبح تيمور على حدود البلاد العربية !
وكانت أخباره سبقته إليها ، وأحسّ أمراؤها بالخطر الداهم ، فراحوا يندشون الوحدة ويبعثون وسائل دفع الغزو التتري الفظيع الذي اقترب بخيله ورجله وأصبح على الأبواب ، وكان أول اتفاق أبرم بين مصر و بغداد ، واستطاع هذا المحور أن يضم إلى صفوفه الثائرين على التتار كالتركمان والقبائل التي دخلت الحدود لائذة طالبة الغوث واستعد صاحب بغداد - الذي كان في وجه العاصفة - لجمع أمواله وكنوزه وبعث بها إلى مصر وكانت جميع هذه المحاولات والمؤامرات تبلغ تيمور عن طريقة عيونه وجواسيسه .

دخلت قوات تيمور بغداد فلم تلق مقاومة تذكر فقد فرّ السلطان هارباً إلى مصر وترك البلاد بغير قيادة فاستسلمت واجتمع كبارها فأعربوا عن خضوعهم لاهل التتار ، وصار يدعى له في الجوامع .

وأرسل تيمور إلى سلطان مصر ينبئه بما وصل إلى علمه من أنباء المؤامرات وأنه من الصواب التسليم بالأمر الواقع حقناً للدماء وحتى يكون هناك أمل في التفاهم والوفاق والسلام بين المملكتين .

عندما وصلت رسل تيمور إلى مصر تحمل إلى سلطانها رسالة العاهل التتري لم يأبه السلطان بهذا التهديد وأساء استقبال المبعوثين وأمر فضربت أعناقهم . ثم تقدمت القوات المصرية بمساعدة العرب والمماليك والتركمان والأتراك فدخلت بغداد وجعلتها تابعة لمصر .

وكان تيمور في ذلك الوقت ينهب الطريق في غزوة مظفرة إلى الهند . قتل مائة ألف ونهب الذخائر والكنوز التي اشتهرت بها دلهي وجلب معه الفيلة والخيرات والصناعات ، وعاد من الهند عام ١٣٩٩ .. وفي رأسه فكرة غزو العالم العربي .

تقرير الموقف

كان تيمور يطرح الفكرة أمام ناظره ويرى الموقف من عدة جهات :

(١) حالة الجو : أى الفصل المناسب للعملية .

(٢) الماء والكلأ : ليضمن تموين قواته .

(٣) الطريق المأمون : الذى يوصله إلى الغرض دون أن يتعرض لأعداء آخرين .

(٤) قوة خصومه : كيف يفرقها ويقضى على قسم بعد آخر .

وقد رأى تيمور أن خصومه هم : الترك ، والتركان ، والعرب ، وأهل جورجيا . إذا سار إلى بغداد تعرض لهجوم الترك من ناحية ، ومصر من الناحية الأخرى .. وراح يعمل بالحكمة قبل الحرب . كتب إلى بايزيد - سلطان الترك - يناشده الوقوف على الحياد فى حربه ضد التركان والعرب ، ويحذره فى الوقت نفسه ، فرد عليه بايزيد بكتاب قال فيه :

« ليس من عادة الأتراك أن يتخلوا عن رجل طلب مساعدتهم » فأرسل إليه تيمور منذاراً ومهدداً ، وبينما كانت الرسائل متبادلة كانت قوات تيمور قد اجتاحت « سيواس » وقضت على

سكانها الأرمن وأبقت على المسلمين . . ثم حوّل عنان جواده فلم يمض
للقاء الترك وإنما فاجأ الحدود السورية عام ١٤٠١ .

وكتب تيمور إلى والى حلب :

« إننا وصلنا في العام الماضي إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص
من قتلة رسلنا ، ثم بلغنا موت - السلطان الظاهر - وبلغنا أمر الهند
وما هم عليه من الفساد فتوجهنا إليهم وأظفروا الله بهم ثم رجعنا إلى
الكرج فأظفروا الله بهم ، ثم بلغنا قلة أدب هذا الصبي ابن عثمان -
يقصد السلطان بايزيد - فأردنا عرك أذنه فشقنا بسيواس وغيرها من
بلادهم كما بلغكم ونحن نرسل الكتب إلى السلطان بمصر فلا يعود
جوابها فنعلمهم أن يرسلوا قريبتنا « الكمش » الذي أسروه فإن لم يفعلوا
فدماء المسلمين في أعناقهم والسلام » .

ومثلما حدث في مصر ، حدث في حلب : ضربت أعناق
رسل تيمور .

وأخذت حلب تستعد وتتحصن وامتلأ أهلها وحاميتها حماسة
لدفع الخطر المقبل ، ومهما يكن من أمر هذه الاستعدادات فقد كان
واضحاً أن معلومات أمير حلب عن تيمور كانت ناقصة وأن تقدير
الموقف لم يكن صحيحاً إذ سرعان ما طبقت القوات التتارية على حلب
فدمرتها وقضت على حاميتها وجعلت عاليها سافلها ، وانتهكوا حرمتها
وداسوا مقدساتها .

جاء في « كنوز الذهب » :

[أن جيش تيمور لما دخل إلى حلب نهب وأحرق وسبي وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيقتلونه من يدها و فلجأ النساء عند ذلك إلى جامعها ظناً من أن هذا يقينهن من أيدي الكفرة ، وصارت المرأة تطلى وجهها بطين أو بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسننها فيأثي الجندي من التتار ويغسل وجهها و ؟]

واستسلم ذوى الشأن في حلب ، ومع هذا قتلهم تيمور جميعاً وأحرق المدينة بعد أن ظفر بكنوزها وذخائرها ، وأقام فيها نحو شهر وجنوده ينهبون ويخربون ويسرفون في القتل والنهب والاعتداء وبني من رؤوس القتلى عشر مآذن ويقال إنه قضى على عشرين ألف رجل في هذه الغزوة النكراء .

وفعل التتار بأهل حماة ما فعلوا بأهل حلب من قتل وتدمير وسبي ونهب ، واستسلمت حمص بغير قتال ، وسجل تيمور على رخامة بالجامع الأموى بحماة العبارة الآتية :

[إن يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا إلى بغداد فخاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لقم بيننا المودة فقتلوا رسلنا وظفرت طائفة من التركان بجماعة من رجالنا فسجنوهم فتوجهنا لاستخلاص قريبتنا من أيدي مخالفينا . . .]

التتار . . والنار والمرار

اجتاح التتار الشام وأطبقوا على دمشق ، وكان ملكها بارحها
لائذاً بالفرار إلى مصر فلما أرسل تيمور إلى نائب دمشق رسولاً
قتله نائب الملك قبل أن يستمع إلى رسالته مثلما فعل نائب حلب من
قبل . . وكان الثمن فادحاً . . القضاء على أعظم مدينة وأجل عاصمة في
ذلك العهد .

ذكر ابن إياس : أنه كان بين أهل دمشق وبين جنود تيمور
في أول يوم وقعة عظيمة قتل فيها من جند تيمور ألفا إنسان فأرسل
تيمور يطلب من أعيان دمشق رجلاً من عقلائهم ، ويمشى بينه وبين
أهل دمشق في الصلح ، فلما أتى رسول تيمور بهذه الرسالة تشاور أهل
دمشق فيمن يرسلونه إلى تيمور فوقع اختيارهم على القاضي تقي الدين بن
مفلح بن الحنبلي ، لأنه كان إنساناً طلق اللسان يعرف التركية والعربية ،
فأرخواه من أعلا السور ومعه خمسة أنفس من أعيان دمشق ، فغاب
عند تيمور ساعة ثم رجع من عنده ، فأخبر بأن تيمور تلطف معه في القول ،
وقال له :

« هذه بلد فيها الأنبياء وقد أعتقها لهم » . . وشرح من محاسن
تيمور شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتاله ويرغبهم في

طاعته ، فصار أهل البلد فرقتين ، فرقة ترى ما رآه هذا القاضى ، وفرقة ترى محاربتة ، وكان أكثر أهل البلديرون مخالفة القاضى ومحاربة تيمور ، ثم غلب رأى القاضى وجماعته ، فقصد أن يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب القلعة وقال لهم .

— إن فعلتم أحرقتم البلدة جميعها .

ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم إليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً .

ثم قبض تيمور على القاضى وجماعته وأودعهم فى الحديد !

وذكر غيره : أنه لما قدم الخبر على أهل دمشق بأخذ حلب نودى فى الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا فى ذلك ثم قدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف أهلها ، وهموا بالجللاء فمنعوا من ذلك ، ونودى من مسافر نهب ، فعاد إليها من كان خرج منها .

وحصنت دمشق ، ونصبت الجانيق على قلعة دمشق ونصبت المسكاحل على أسوار المدينة استعداداً للقتال ، ثم نزل تيمور بجيشه فى قطنا فملأت جنوده الأرض كثرة ، وصار بين جند دمشق وبين جند تيمور موقعة لم يتمكن بها تيمور من اقتحام المدينة ، ثم هرب السلطان إلى مصر لما بلغه أن هناك مؤامرة ضده .

وكان اجتمع في دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين
والحصيين وأهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور ، ماعدا الجند الذي
في دمشق ، ولما أصبحوا وقد فقدوا سلطانهم وأمرائهم أغلقوا أبواب
دمشق ، وركبوا أسوار البلدة ونادوا بالجهاد ، فتهياً أهل دمشق للقتال
وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من أعلى الأسوار أشد
قتال ، وردوا التتار عن السور والخنق ، وأسروا منهم جماعة حاولوا
إقتحام باب دمشق ، وأخذوا من خيولهم عدة كبيرة ، وقتلوا منهم نحو
الألف ، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة ، ولما أعياى تيمور أمرهم جعل
يخادعهم فأرسل يريد الصلح .

وطالب تيمور أولاً تسعة أصناف من المأكول والمشروب والملبوس
وغیره ، وهذه هى عادته فى كل بلد يفتتحها ، فأجابه الدمشقيون إلى
ماطلب باقتناع القاضى كما قدمنا .

وتقرر أن يحجى تيمور من دمشق ألف ألف دينار ، وفرض
المبلغ على الناس فقاموا به من غير مشقة عظيمة ، ولكن تيموراً
عاد يقول أنه يطلب عشرة أضعاف هذا المبلغ . فنزل بالناس
باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم . ثم فرض عليهم تيمور أن
يسلموه أموال الذين انهزموا وأسلحتهم ففعلوا ذلك . ثم طلب
جميع مافى دمشق من السلاح جليله وحقيقه فأخرجوه كله فلهما
فرغ من ذلك قبض على القاضى وجماعته وألزمهم أن يكتبوا

له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها : فكتبوا ذلك ودفعوه إليه
ففرقه على أمرائه وقسم البلديينهم فساروا إليها بجنودها وحواشيهم وأخذ
كل منهم مقامه في محلة من المحلات وألزموا أهلها بإخراج كل ما عندهم
ودام هذا البلاء عدة أيام ، ثم أمر تيموررجاله بالدخول وسيوفهم
مشهورة ، فنهبوا ما قدروا عليه وساقوا الأولاد والرجال وتركوا من
الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ؛ وساقوا الجميع مر بوطين في الحبال
ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد وكان يوماً عاصف الريح فعم
الحريق البلد حتى صار لهيب النار ينافح السحاب .

وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها
بعد أن قام ثمانين يوماً ، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف
جامع بنى أمية من الحريق ، وزالت أبوابه ؛ وتفتّر رخامه ولم يبق
غير جورة قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها
وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق فيها غير
الأطفال .

وفوق ذلك كله ومع مامنية به دمشق من قتل سكانها ،
وإحراق مصانعها وبيوتها . واستخراج أموالها وطرائفها ، أصابتها
من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك ، أصابت منها الصميم فلم تبق
ولم تذر .

قال ابن عرشاه في تفصيل هذا الهول [وبينما كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق ، أخذ هو يتطلب الأفاضل وأصحاب الحرف والصنائع ، وأرباب الفضل ، واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة أيام ، وارتحل وجيشه ، وقد أخذ من نفائس الأموال ، فوق الطاقة والإمكان ، وتحملوا عدا ذلك ما عجزت عنه قوة استطاعتهم فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ، ويلقونه شيئاً فشيئاً ، في أوعار المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأصبحت القفار والبراري والجبال والصحاري من الأمتعة والأقشة كأنها سوق أو معرض وكأن الأرض فتحت خزائنها وأظهرت من المعادن وغيرها كامنها ، وأخذ تيمور من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون ، أو بارع من النساجين والخياطين والحجارين ، والنجارين ، والأقباعية ، والبياطرة ، والنقاشين ، والقواسين ، وبالجملة أهل كل فن وصناعة . ولم يترك الفقهاء ، والعلماء ، والأفاضل ، وحافظ القرآن ، والعبيد ، والنساء ، والصبيان بما لا يسعه الضبط والوصف] .

وجاء في الضوء اللامع : أن تيمور كان يسلك الجدمع القريب والبعيد ، ولا يحب المزاح ، ويلعب الشطرنج وله فيه يد طويلة ومهارة فائقة حتى أنه زاد فيه جملاً وبقلاً ، بحيث لم يكن يلاعبه فيه إلا أفراد .. وكان ذا رأى صائب ، ومكائد في الحروب عجيبة وفراسة قل

أن تخطيء ، عارفاً بالتواريخ لإدمانه على سماعها لا يخلو مجلسه من قراءة
شيء منها سافراً وحضراً ، مغرمّاً بمن حوله معرفة بصناعة ما إذا كان
بارعاً فيها ، حاذقاً باللغة الفارسية ، والتركية ، والمغلية الخاصة ، ويعتمد
قواعد جنكيز خان أصلاً .

مع التاريخ !

رحل تيمور عن دمشق ، وقد أصبحت أطلالا لآمال فيها
ولا رجال ، ولا مساكن ، ولا حيوان ، صار من بقى فيها من عسكر
السلطان ومن أهلها يجتمعون ويتراقون ويخرجون من دمشق إلى الديار
المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون . فجرى من العربان
والعشيرة ما لم يجر عليهم من جنود تيمور ، فذهبت حرمة المملكة ،
وعزم السلطان الناصر على العودة إلى دمشق ، ثم بلغه أن تيمور رحل
عنها وهو مريض فعدل عن حملته ، وأرسل تيمور إلى صاحب مصر
(سودون) نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قريبه
الذى كان أسرى أيام الملك الظاهر برقوق ، وأنه إذا أطلقه يطلق
ماعدته من الأسرى ، فأطلقه وكساه وأحسن إليه ، فلما وصل جماعة
السلطان ومعه قريبي تيمور إلى معسكره ، وأكرمهم واعتذر مما وقع
منه ، وقال : هذا كان مقدراً . . .

وقد رحل تيمور عن دمشق ولم يتعدها إلى فلسطين ، فسالت
سورية الجنوبية من شره . . .

وكانت أكثر المدن الصغرى في أواسط سوريا قد خضعت له
بحكم الطبيعة ومنها طرابلس وقد أحضر له منها مال ، واجتاح بعلبك

ونهبها ، ولما وصل إلى حلب حرقها مرة ثانية ، وهدم أبراج القلعة
وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل أمراء كل من وجدهم
في طريقه وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين وترك بعضهم ،
والواقع أن تخريبات تيمور في البلاد السورية ، لا يتأتى وقوع مثلها في
عشرات الأعوام ، عملها بجيشه الجرار في عشرات من الأيام .

قال تيمور : إن ما فعله كان مقدراً ، فكأنه شعر بعظم تبعته على
عادة الفاتحين والسفاكين ، بيد أنه كان مغرئ بغزو البلاد الإسلامية
كما يظهر لأنه لم يترك قطراً إسلامياً إلا تناوله بالبلاء والحق حتى أنه كان
يريد غزو أفريقية كما فتح آسيا ، يقال : إنه لما اجتمع بابن خلدون
المؤرخ المغربي المشهور سأله :
أين بلدك ؟ .

فقال ابن خلدون : - بالمغرب الجواني .

فقال : - وما معنى الجواني في وصف المغرب ؟ .

فقال : هو في العرف معناه الداخلي أى الأبعد .

فقال له تيمور : أريد أن تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها
وأدانيها وجبالها وأنهارها وقرائها وأمصارها .

فكتب له ابن خلدون ما طلب ، فدفعه تيمور إلى أحد رجاله
لترجمته إلى اللسان المغلي ، ثم هرب ابن خلدون إلى مصر ناجياً بنفسه
مخافة أن يأخذه معه إلى بلاده .

بفرد . . بعد رمس ؟

نقطة سوداء في جبين الفاتح التتري أضاعت سمعته كجندی وشوهرت تاريخه كبطل ، فهو لم يعرف في حرب به حدود الحرب ، ولم يرع تقاليد القتال ، وإنما كانت خطته القتل والتدمير والخراب ، لم يحارب الجنود بحسب ، وإنما أجرى سيفه على النساء والأطفال ولم يدمر المواقع وحدها ولكن دمر المدن وهدم البيوت وأشاع الفوضى والخراب . . .

لم يعتمد على البراعة الحربية وإنما أدار القتال بروح السفاكين الهمج وترك كل خطة حربية مفتوحة بعد النصر ليتيح لرجالها ما كانوا عليه من إجرام وفسق وسلب ونهب .

الذين دافعوا عن تيمور قالوا : إنه مد في حبال الوحشية ليخيف خصومه ، وقضى بالتنكيل والعذاب لأعدائه حتى يعلم مصيره كل من تحدته نفسه بقتاله أو الخروج عليه ولكن الجنديّة الحقّة تبرأ من أفعال تيمور وقومه التتار ، وستظل النقطة السوداء في تاريخه وتاريخهم تغممهم وتحط من شأنهم ، فالقوة وحدها - بغير الحق ، والنظام - مآلها الزوال . . . ولهذا دالت دولة التتار عقب موت عاهلهم تيمور . . . ولم يعد يذكر سوى وحشية تيمور وهمجيته .

وقد ساعد تيمور على إحراز النصر وتقويض العروش وتدمير

الشعوب أن خصومه كانوا غير منظمين ، فلو قدر للبلاذ العربية الاتحاد والتضامن لوقفت في وجه الطاغية وردته على أعقابها مهما كانت قوته وشدته . إن الذي ففتح الباب على مصراعيه للتتار هو عدم الاتحاد ، ولهذا صرع التتار خصومهم دولة بعد دولة . . .

لم يكن في مصر أو الشام رجل قوى بعيد النظر يستطيع أن يدفع هذه البلاذ إلى الاتحاد في مواجهة الخطر ، وأن يعد جيشاً قوياً موحداً يضم إليه فلول الثائرين والهاربين والناسقين ، ويوطد صلاته بالأتراك فتكون ثمة خطة واحدة تضغط على قوات التتار من أكثر من ناحية فتصمد لها وتودي بها وتقضى عليها .

لقد كان معروفاً أن التتار لا يتركون بلاذاً تنعم بالسلم وتزدهر بالخيرات حتى تهبط عليها جحافلهم تقفل وتسبي وتدمر وتخرب . . فكيف قابل المسلمون في الشام ومصر وتركيا هذا الخطر ! . . كان بايزيد ملك الترك معتزاً بسطوته وقوة جيشه ، وإنه وحده كفيل بالقضاء على التتار فلم يتحرك حين دهم التتار دمشق وبغداد ، وظل ملتزماً حمله حتى هزمت دمشق ثم بغداد ، وأخيراً دارت عليه الدائرة . أما صاحب بغداد - السلطان أحمد - فكان قد فكر في الخطر المرتقب ، وكانت خطته أن يـمارح بغداد مع صفوة جيشه إلى حيث يلتقي بالجيش التركي وينضم إليه في قتال التتار . . . كانت

الخطوة متأخرة ، وعرف تيمور بها . فقد كانت مخبراته واسعة الحيلة وجواسيسه تعمل في كل مكان ، وتأتيه بأدق الأخبار ، وبتفاصيل الخطط .

غادر تيمور البلاد السورية إلى ضفاف الفرات سنة ١٤٠١ ، وأراد أن يعمل بسرعة فقد كان عليه أن يقضى على بغداد في أيام قليلة ليحول وجهته إلى الترك الذين كانوا يستعدون لمحاربتة .

بعث تيمور إلى نائب حاكم بغداد يخبره بين التسليم ، أو التدمير . فرفض التسليم ، ونادى على قومه بالجهاد ، واحتفى خلف الحصون والأسوار فضيع على التتار فرصة الغزو بلا حرب ، والفتح بلا مشقة وخاصة وأن تيمور كان يتطلب انتصاراً عاجلاً ، وغزواً سهلاً بعد عناء المسير عدة أميال . . وذلك في الوقت الذي كانت كثرة من جيوشه تتأهب في تبريز للمعركة ضد الترك .

وفكر تيمور في ترك بغداد إلا أن موقعها أغراه ، ومركزها الأدبي شده إليها ، فقد كانت مفتاح الموقف في الشرق العربي ، والحصن الأخير الذي يعتد به ، فأراد أن يجعل منها الضربة قبل النهائية التي يدوى صداها عند الترك فتحديث الأثر المعنوي المنشود .

وأخذ التتار يعدون العدة لحصار بغداد واقتحامها فأرسل تيمور إلى ابنه (شاه روك) أن يأتي إليه في عشرة فرق ، ومعه أدوات الحصار ،

وأرسل إلى ابنه سليمان أن يأتى إليه ببعض الفرق من سمرقند . . وذلك لمواجهة معركتين فاصلتين حان موعدهما .

ولما جاء (شاه روك) بجنده أمر رجاله ، وكان عددهم يبلغ المائة ألف نسمة بالمظاهرة حول أسوار المدينة لعل فى هذه المظاهرة ما يحمل سكان بغداد على طلب الصلح والتسليم ، ولكن شيئاً من هذا لم يقع ، وظل سكان بغداد يعتصمون بأسوارهم ، فأغضب ذلك تيموراً ، وراح ينصرف إلى محاصرة المدينة بشدة وقوة وحق .

ونصبت آلات الحصار ، وأخذت الحجارة تندفع نحو الأسوار فتهدم بعضها حيناً ، وترتد مدحورة حيناً آخر ، حتى تمكن التتار من فتح ثغرة فى جانب من السور ، ولكنهم وجدوا أن البغداديين أقاموا وراء السور الخارجى سوراً آخر ، وقد أخذوا مكانهم فى أعلاه ، يدفعون عن مدينتهم عادية الغزاة ، ويرمونهم بالحجارة والأقواس .

وكان الحر شديداً لاهباً لا يستطيع المرء معه أن يقضى فى الشمس المحرقة برهة من الزمن ، حتى لقد كانت الطيور تسقط من الجو لأحراك بها ، وكان يضطر التتار أنفسهم ما بين حاشيتى النهار إلى الاختباء فى الظل ، لا يظهرون للعيان إلا فى أول النهار وآخره .

ولكن تيموراً لم يضرب ضربته القاضية إلا فى رابعة النهار ، وفى

منتصفه ، وهو الوقت الذى ينصرف فيه البغداديون عادة للراحة ظناً منهم أن أحداً لن يهاجمهم فى مثل هذه الساعة المحرقة ، وبذلك تمكن تيمور من اقتحام أحد جانبي السور ، وعندئذ أمر رجاله كلهم بالهجوم ، وكانت ساعة يشيب من هولها الأطفال ، فأصبحت دار السلام دار الدم والضنك والقتل والسلب والنهب ، وأما القتلى فليس يعدهم حاسب ، ولا استطاع لهم حصر ، ولقد أخبر مؤرخو تيمور نفسه أنهم يبلغون تسعين ألف نسمة ، وأن مئة وعشرين سارية من رؤوس القتلى نصبت فى الأرض الفضاء . .

أما الأسوار فقد دمرت ، وكذلك المنازل أحرقت ، ولم يترك تيمور فى بغداد غير بعض المساجد ، وكذلك كانت نهاية بغداد عاصمة العباسيين ، ومفخرة البلاد العربية فى ذلك الحين .

ولئن أعيدت عمارة بغداد بعد ذلك العهد إلا أنها أضاعت مكانتها السابقة العالمية التى كانت تتمتع بها ، وتفخر بها على المدن والعواصم وأصبحت مدينة عادية لا شأن لها فى سياسة العالم العربى ، ولم يكثف تيمور بإحراق المدينة والفتك بسكانها بل راح يبعث بجنود سقوط عاصمة العباسيين إلى جميع المدن والحوضر فى مملكته ، وإلى بايزيد ملك العثمانيين أيضاً .

سقطت بغداد ، وقضى التتار على كل عرق فيها ينبض بالحياة ،

وبارحها تيمور ومعه كنوزها وخيراتها ، ولوى عنان جواده إلى تبريز
لحاربة الترك . وبذلك نجت مصر من شره ، وانتهت معاركه في البلاد
العربية . . وكانت بغداد خاتمة الأهوال .

ولم يقف المؤرخون طويلاً عند الحديث عن هذه المعارك ، فلم يكن
للفن الحربى نصيباً من العناية ، وإنما كان إجماع المراجع وصفاً إجمالياً
مليئاً بالدعابة مشحوناً بالحديث عن فظاعة القتار ، واندفاعهم الخطير
إلى القتل والتدمير والسلب والنهب ، ولهذا يصعب على دراسى التاريخ
العسكرى التحقق من التفاصيل والوصول إلى خطط الفريقين والوقوف
على التقدير الصحيح للمواقف المختلفة . غير أن البحث فى شتى المراجع
للملمين بمبادئ الحرب ينتهى بعدة نتائج حاسمة كلها تدل على ما كان
يتمتع به تيمورلنك من موهبة حربية فذة ، ومبادئ ونظم استنها لنفسه
وطبقها فى معاركه فكان له النصر دائماً فى كل حرب خاضها ، وفى أية
معركة أدار رحاها .

ومن أهم المبادئ التى جرى عليها تيمورلنك :

(١) المعلومات : سبق تيمورلنك أهل عصره فى استخدام
الجاسوسية والطابور الخامس ، ولعله جرى فى ذلك مجرى جنكيز خان ،
فكلاهما كانت له مقدرة فذة فى استخدام عناصر الاستطلاع والجاسوسية ،
وحقق بذلك قدراً وفيراً من المعلومات الوفيرة التى كشفت .

(٢) الحشد : كانت قوات التتار أكثر من الخصوم في أية معركة ، وكان تيمورلنك يعتمد في سرعة إنهاء المعركة على جبهوش جرارة تربو على عدد خصومه فكان له التفوق العددي في ساحة المعركة الحاسمة .

وكان يسير على تعبئة كاملة واستعداد تام لأي طارئ في القتال المرتقب .

(٣) القتال الهجومي : وكان الهجوم الميزة الغالبة على أعمال التتار فخروهم كانت سلسلة من الغارات والهجمات الشديدة ولم يعرف عن خططهم الحربية غير وسيلة واحدة : الهجوم .

(٤) خفة الحركة : وكان التتار يفوقون سواهم في خفة الحركة فهم أبناء الصحراء وفرسان التنقل العاجل ، وأصحاب الغارات التي تعتمد على السرعة والجرأة وقد اعتادت خيلهم العدو السريع وانطبعت نفوسهم بالاندفاع الخاطف .

(٥) الروح المعنوية : لاغرو أن معنويات التتار كانت أقوى بكثير من غيرهم فهو لاء الهمج الذين لا يعرفون الحياة إلا أنها غزو وقتل وتدمير والذين استمروا يندفعون في غزوة بعد أخرى كانوا لا يعبأون بالمشقة ولا يعرفون للهزيمة معنى . . فليس هناك ما يحشون عليه من الخسران .

(٦) النصر بالرعب : كانت أخبار التتار تفتح لهم أبواب المدن قبل وصول الجيوش وتهزم روح العدو قبل اللقاء . ولهذا كان تيمورلنك يعتمد أن تذاع أخبار فتوحه وما جرى لخصومه من مصائب وويلات حتى تهتز لهذه الأنباء قلوب الملوك والأمراء . فإذا هم التتار بمهاجمتهم عرفوا سلفاً ما سوف يحل بهم ، وبذلك تكون الهزيمة المعنوية فاتحة الهزيمة المادية .



مملكة تيمورلنك

أسباب تفوق تيمورلنك

وبهذا يمكن تلخيص أسباب انتصارات تيمورلنك إلى العوامل الآتية :

(١) التفوق العددي .

(٢) المعلومات .

(٣) الروح الهجومية .

(٤) الروح المعنوية .

(٥) الدعاية .

(٦) كفاية الناحية الإدارية .

وليس بوسع قائد عالمي حديث أن يجيء بأكثر مما جاء به تيمورلنك . . الذي سبق بخمسمائة سنة !

والفضل للمتقدم ، كما يقولون .

تيمور . . . والصاعقة

أما تيمور ، فقد عرفنا عنه الكثير .

وأما الصاعقة ، فهو بايزيد الأول ملك الترك الذى اشتهر باتساع ملكه وقوة جيشه ، وشدة بأسه ورسوخ قدمه فى أمور الحرب والحكم .

كان بايزيد أقوى حكام زمانه ، وقد استطاع أن يصد الصليبيين الذين أقبلت جحافلهم من كافة أنحاء أوروبا تحت إمرة ملكة المجر « سيجزمند » فهزمهم شر هزيمة وردهم على أعقابهم إلى غير رجعة سنة ١٣٩٦ .

وقد شهدت تلك الفترة من التاريخ قائدين طموحين : تيمور وبايزيد ، كل منهما ينشد الغلبة والنفوذ ، فصال وجال وقهر الخصوم ، وغزا الأمصار ، كل منهما كان جندياً مغواراً خاض المعارك وعرف النصر . . . ثم أصبحا متجاورين ! ولم يعد العالم يتسع لهما معا . ! ؟

كان تيمور قد غزا بلاد ماوراء النهر وغنم دولة جنكيزخان وفتح الهند وفارس وقضى على دمشق وبغداد ، وبلغ الحدود التركية . . بينما كان بايزيد متربعا على عرش عظيم يسيطر على آسيا الصغرى والبلقان ويرنو ببصره إلى غزو أوروبا ، وقد فتح شهيته

إنتصاره على الصليبيين فازمع الاستيلاء على القسطنطينية وضرب
حولها الحصار ، وأوشك على أن يظفر بها لولا أن جاءته الأنباء بأن
تيمورلنك يقترب من الأراضى التركية ويقتحم « سيواس » . . .
فاضطر بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن أخذ عهداً
على ملكها أن يسلمها إليه بعد أن يتم له القضاء على التتار ، ثم نقل جنده
إلى آسيا لصد الغارة التتارية .

وبدأت المعركة التاريخية الحاسمة . . فى ناحية كان التتار الذين
عرف القارىء إندفاعهم المروع فى القتال والقتل والسلب والنهب ،
وعلى رأسهم قاهر العالم تيمور يهبط بهم فى المعركة فيروع خصومه
ويقضى فيهم القضاء المبرم ويدخل المدينة فيجعل عاليها سافلها
ويحولها إلى مقبرة كبيرة موحشة . . . وفى الناحية الأخرى جيش
جبار عرك الحروب على ثرى آسيا وأوربا ، ويتضمن حشوداً من
الأناضول واليونان والعرب ، وقد برعوا فى شتى أنواع القتال ،
وتزيّوا بالدروع والأغطية والقلانس ، وعلى رأسهم قائد يعتبر
نفسه ملك زمانه ، وقد أعد جيشه خير إعداد وزودهم بالسلاح والعتاد
فاستخدموا الدروع تغطى كل الجسم وكان ينطبق عليهم قول المتنبي
فى الروم :

أتوك يحرون الحديد كأنما سروا بجياد ما هن قوائم

فلم يكن يظهر للناظر إليهم غير عيونهم ، وقد قدر المؤرخون عدد الجيش بمئة وخمسين ألفاً من جميع الأمم التي كان يحكمها سلطان الترك في ذلك العهد .

وقد تعود هذا الجيش النصر في كل غزواته وفتوحاته ، فكان أفرادها والحالة هذه على ثقة من أنفسهم ، وقد اعتزموا على التضحية في سبيل سلطانهم الذي كان يرتصد الحوادث وهو هادئ النفس ثابت الجنان .

كان تيمور يتقدم إليهم . . وهو أمر كان يسر بايزيد ، لأن جلة جنده من المشاة ، وهؤلاء كانوا في أحسن حال حين يدافعون وهم في أرضهم ، فما عرفوا الإنكسار أبداً ، خصوصاً وأن الأرض الوعرة في آسيا الصغرى كانت توافقهم ، وكانوا يعرفونها كل المعرفة بخلاف التتار الذين كانوا يتقدمون في أرض مجهولتها ، ولا يعرفون مغاوزها وسبلها .

وكان هناك في القرب من سيواس طريق واحد ، فاعتزم بايزيد أن يأخذ مكانه ، وينظم معسكره ، ويدخل في خطته هذا الطريق نفسه ، لأنه كان يعتقد أن جنود تيمور سوف تستخدمه حتماً ، ولا سبيل لتقدمها غيره .

وتقدم بايزيد الهويماً نحو الشرق حتى وصل إلى ضواحي أنقرة فخط رحاله ونصب خيامه ، وأمر جنده بالنزول والاستراحة فترة ،

ثم تقدم منها إلى ضفة النهر فأخبرته عيونه أن تيمور قرب سيواس .
فاتخذ جيشه مكاناً يبعد عن محل تيمور بمقدار مسيرة يومين للراجل
وأخذ ينتظر خصمه .

انتظر أياماً ثم أسبوعاً . . . ثم حملت له عيونه بعض سكان
سيواس ، فإذا التتار ليسوا فيها وإنما فيها جماعة صغيرة منهم . وأما
جيش تيمور فليس يعلم أحد مكانه ، ولكنهم يعلمون أنه ذهب
لحاربة الأتراك !؟

وأسقط في يد بايزيد ، لأن تيمور لم يكن في الطريق الواقعة بينه
وبين سيواس ، والتي أخذ ينتظر خصمه فيها ثم أن طلائعه التي
ذهبت شمالاً وشرقاً وغرباً ، جاءت تقول إنهم لم يعثروا على جيش
تيمور الذي اختفى .. فلا يعد يعرف أحد أثره !

وكان هذا الموقف غريباً لدى الأتراك ، فقد كانوا اتخذوا أهبتهم
للحرب منتظرين خصمهم في أرض وعرة المسالك صعبة السبيل ،
ثم إن عدم معرفتهم بمكان خصمهم ليس من الحكمة العسكرية في
شيء ، وقد يقع ما ليس في الحساب ، ومع ذلك فقد رأى بايزيد أن
يقع مكانه وأن لا يحرك ساكناً حتى يعرف مواقع خصمه !

ولم يطل ذلك كثيراً فقد هجمت بعض طلائع تيمور على
الجناسح الأيمن وتمكنت من أخذ بعض الأمري ، فترك بايزيد

مكانه وأسرع إلى حيث وقع الهجوم ثم بعث طلائع تتعرف على محل
تيمور ، فإذا به قد اختفى ثانية ، فأرسل عندئذ ابنه سليمان مع فرقتين
من الجيش ، فرجع هذا يقول إن تيمور قد مشى بجيشه نحو أنقرة ،
وعندئذ أخذ بايزيد يعود بجيشه إلى المكان الذي كان قد تركه قبلاً ..
وبدأ يشعر بالكارثة !

والواقع أن خطة تيمور كانت بسيطة جداً فإنه حين رأى الأرض
التركية ودرس طبيعتها وعرف صعوبتها وجد أنه يصعب على فرسانه
الحاربة فيها ، وأنه والحالة هذه إن يوفق في معركة مع بايزيد إذا كان
هذا قد أخذ لنفسه وجنده مكاناً ملائماً ، فراح عندئذ يحاول جذب
خصمه إليه ، وسار بجنوده على ضفاف النهر بالقرب من أنقرة حيث
المرعى حسن والسكّاء كثير ، ثم أرسل بعض طلائعه للاصطدام مع
جناح بايزيد الأيمن ، فلما قامت بعملها انطلقت مسرعة إلى مكانها
الأصلي .

وقد ورد في بعض المراجع القديمة أن تيمور كان يقول لرجاله في
هذه المرحلة من القتال :

« بميسورنا أن نفعل أحد أمرين : إما أن نقيم هنا ننتظر هجوم
الترك علينا ، أو نتقدم إلى بلادهم فنحرقها ونهدمها ونحملهم على
الجرى خلفه ، ولما كان أكثر جنود بايزيد من المشاة فإن المشى
يضرهم ويتعبهم » !

و بعد أن سكت برهة قال :

— « وهذا الرأي الأخير أصلح الآراء وهو ماسنفعله . »

وهكذا كان تيمور يقدر الموقف ، ويستعرض الحلول في

« مجلس حرب »

تقدم تيمور بجيشه بعد أن بث طلائعه وأخذ أهبطه حتى وصل إلى ضواحي أنقرة ، فأمر بمحاصرتها ، وأخذ يراقب بنفسه الأرض التي كان بايزيد قد أخذ مراكزه فيها ، ثم أمر رجاله بردم عين الماء الوحيدة التي كانت في هذه الجهة وبوضع السم فيها ؟! ولكنه قبل أن يبدأ بحصار أنقرة أخبرته طلائعه أن الترك يتقدمون نحوه وأنهم لا يبعدون عنه أكثر من إحدى عشر ميلاً . فترك أنقرة جانباً واتخذ لنفسه مكاناً موافقاً ، وأمر جنده بإشعال النيران وحراسة المكان .

وأما الأتراك فلم يظهروا إلا في صباح اليوم التالي ، وقد كانوا ينهبون الأرض مدة أسبوع كامل ، حتى لحقوا بعدوهم وقد قل معهم الماء ، وأحرق التتار العشب في طريقهم ، فوصلوا والحالة هذه وقد تملكهم التعب ، وأضناهم بعد الشقة ، وأثر فيهم العطش وقلة الغذاء .

وكان النهر خلف جيوش تيمور فلم يكن أمام الترك من سبيل إلا الهجوم على خصومهم وإزاحتهم عن طريقهم .

وقد وجد بايزيد نفسه يحارب خصومه في موقف يعرف معه أنه لن يبلغ النصر الذي يريده ، وعرف أيضاً أن التتار قد سخروا

به ، وحملوه على هذا الجرى السريع ليصل إليهم وجيشه خائر القوى مضطرب النفس شديد الضعف ، وكان يعلم أن هجومه سيكون بواسطة فرسانه ، وفرسان التتار أشد منهم بأساً وأكثر عدداً ، فلا بد لهم والحالة هذه من الانتصار عليهم ، ولكن ما العمل والظروف قد أجبرته على هذا الموقف ، ولم يكن بايزيد بالجبان ، فرغم أنه وجد نفسه في مركز حرج فقد قرر أن يحارب خصمه بكل قوته .. إلى النهاية !

ولم يتحرك تيمور للمعركة إلا في الساعة الأخيرة ، فقد كانت المعركة بيد قواده وأولاده يسировنها وفاقاً للأوامر التي أعطاهم إياها ، وكان حفيده الأمير محمد يقود جيش سمرقند وقد أخذ مكانه في وسط الجيش وتفرق بقية الأمراء والقواد بين الميمنة والميسرة ، كما وضعوا الفيلة التي جلبها تيمور معه من الهند في مكان خاص ظاهر ليكون لها التأثير المعنوي المطلوب في قلوب العدو .

وكان هجوم الفرسان بقيادة الأمير سليمان بن بايزيد ولكنه لم يوفق ، واتخذت المعركة عندئذ صورة هائلة فقد اندفعت جموع التتار بقيادة الأمير محمد والتي كانت قد أخذت مكانها في الجناح الأيمن . فاخترقت ما أمامها ، واضطربت صفوف الترك لهذه الصدمة وظهرت الهزيمة عليها ، وكان في جيش بايزيد جماعة من التتار ، فلما اشتدت المعركة تركوه وانضموا إلى تيمور وأخذوا يحاربون تحت لوائه .

وحى الوطيس ، وتمكنت فرسان تيمور من الترك واخترقت
الجهة مما اضطر بايزيد إلى أن يأمر بالهجوم العام ولكن هذا لم يفده
أبدأ ، فقد كان الوهن نفذ في جيشه فلم يستطع ثباتاً أمام جموع التتار ،
وأراد بايزيد النجاة بنفسه فلم يوفق وأخذ أسيراً وحمل إلى خيمة تيمور
وكان في ذلك نهاية المعركة التاريخية الكبرى .

يقول الرواة : إن بايزيد لما حمل إلى خيمة تيمور كان هذا يلعب
الشطرنج مع « شاه روك » فلما رآه مقبلاً ظهرت الابتسامة على وجهه .
فقال له السلطان :

- ليس من الخلق أن تبتسم أمام شخص قدر الله عليه هذا .

فأجابه تيمور :

- إني أضحك لأن الله قد أعطى ملك العالم لرجل أعور مثلك ..

ثم قال بعد برهة :

- على أنى أعرف ما كان يؤول إليه مصيرى ومصير رجالى لو تمت

الغلبة لك !

فلم يجبه بايزيد على كلامه هذا ، ثم أمر تيمور بفك قيوده
وأجلسه إلى جانبه ، فطلب السلطان من تيمور أن يبحثوا عن أولاده
فجاؤوه بموسى فقط ، لأن بقية أولاده كانوا قد تمكنوا من
الهرب والنجاة .

ولما احتل الأمير نور الدين (بروسه) عاصمة العثمانيين حمل إلى

تيمور كل ما فيها من التحف والجواري وما في حرم السلطان من نساء
وسراري وخدم وحشم ، وعاد الجيش وقد حمل كل فرد من أفراد
نصيبه من الغنيمة ، وفي مساء اليوم نفسه أقيمت حفلة عظيمة في معسكر
تيمور كما هي العادة المتبعة بعد كل انتصار ، وأجبر تيمور السلطان
على حضورها .

ولقد كان هذا أكثر ما يستطيع أن يتحملة ملك غلب أمره
كبايزيد ، وقد كان في سابقات الأعوام لا يعرف جيشه إلا الانتصارات
ولا يمشى قواده إلا من فتح ومن نصر إلى مثله . . .

والواقع أن تيموراً كان يفكر في هذه الحفلة بالكتاب الذي
بعثه إلى بايزيد - قبل تقدمه لفتح البلاد العربية - يرجوه فيه أن يترك
صاحب بغداد ويوسف التركاني وشأنهما ، وكيف أجابه السلطان
بالتهديد والوشيد ، وأمله أراد من إحضاره إلى هذه الحفلة أن يريه بنفسه
ألواناً من التحقير لم يرها قبل يومه .

على أن بايزيد لم يطل عمره كثيراً بعد أسره ، فقد توفي بعد أشهر
وظلت مملكة العثمانيين بدون سلطان مدة تسع سنوات تقريباً حتى
تمكن أحد أبنائه من التغلب على عوامل الشقاق ، فرجعت الدولة
العثمانية بعده إلى أمجادها وعظمتها السالفة .

وبفشل الجيش التركي نجت العاصمة البيزنطية من السقوط

وامتد أجملها سنوات أخرى ، حتى تمكن السلطان سليم العثماني من فتحها واقتحامها ونقل عاصمته إليها .

ولابد من الإشارة ما كان لفتوحات تيمور من مصائر عظيمة في تطور التاريخ الأوربي ، فلولا ما أصيب به الترك من فشل في معركة أنقرة ، ومن تضعف وتبلبل وانقسام بعد ذلك ، حتى أنهم ظلوا تسع سنوات دون ماسلطان .. لكانت فتوحاتهم امتدت في أوربا إلى مدى بعيد . ولـ كان بابزید قد دخل القسطنطينية وفتحها قبل تاريخ فتحها بخمسين سنة ، ولاتجه التاريخ المعاصر ، والمتوسط إلى ناحية غير الناحية التي يتجه إليها الآن .

على أبواب أوروبا

كان انكسار الترك عظيماً بحيث تمت لتيمور الغلبة في معركة واحدة ، فسلمت له أنقرة وسقطت «بروسة» وغيرها من المدن التركية ، وهرب الترك من الأمراء والباشوات والجند إلى أوروبا ، وحاول التتار أن يتأثروهم بفرسانهم وأن يقضوا عليهم فلم يوفقوا لأن السفن اليونانية والجنوية راحت تساعد الترك على الانتقال من الضفة الآسيوية إلى الأوروبية ، وحفظت بذلك لهم خط الرجعة ، وقد راح بعض المؤرخين يعجب من مساعدة اليونانيين البيزنطيين للترك في حربهم وهم خصومهم وأعداؤهم ، ولعل سبب ذلك رغبة هؤلاء في مسالمة كل قوى ، أو لعل الترك استمالوهم ببعض المال ، فوضعوا سفنهم تحت تصرفهم ، ولكن هذا جعل التتار ينقمون على اليونانيين ، لأنهم وعدوهم بالمساعدة إذا حاربوا الترك ، فلما أرادوا تتبع بقية الجند الترك الهارب راح هؤلاء يساعدونه ، وأبوا أن ينقلوا لتيمور جندياً واحداً من جنوده إلى الضفة الثانية ، ولم يمض شهر واحد على هذه الحوادث التي ذكرناها حتى لم يبق في آسيا جندي تركي واحد ، فقد انتقلوا جميعهم إلى أوروبا ، وكذلك لم يكن في أوروبا واحد من التتار .

إن دنكرك سابقة حدثت قبل خمسة قرون ! ؟ .

وانتهت المعركة عند هذا الحد ، ولم يستطع التتار متابعة خصومهم وانتهى سيرهم عند أزمير ، وكانت فيها حامية من نبلاء (سانت جورج) فتقدم إليها تيمور يتفحصها ويمعن النظر في مواقعها خصوصاً وقد بلغه أن بايزيد صرف ست سنوات في حصارها ، ثم راح يحاصر القلعة مدة أسبوعين حتى اشتدت وطأة الحصار ، فتركوا الحصن ولجأوا إلى السفن الراسية في بحر أزمير ، واستولى التتار على الحصن ، ولكنهم غادروه والمدينة بعد أن تركوا فيها أثراً يدل على مرورهم بأن أقاموا أهرامين من رؤوس القتلى .

وأما ملوك أوربا ، فقد وقفوا في دهشة وجزع ، إذ كانوا يعتقدون بقوة الأتراك وجراتهم ، وأنهم قوم لا يغلبون ، ثم دارت الأيام فإذا بهذا الفاتح التتاري يأتي من أقصى الأرض لمحاربة الترك في عقر دارهم فيغلبهم ويأخذ سلطانهم أسيراً ، وتنهار مملكتهم بضربة سيف واحدة .

ولقد تقبل بعض ملوك أوربا هذه الحوادث العظيمة كأمر واقع ، فكتب هنري الرابع ملك إنجلترا يهنئ تيمور بانتصاراته ، وتذكر شارل السادس ملك فرنسا رسالتى تيمور إليه مع مطران السلطانية ، فبعث به إليه مع كتاب وبعض الهدايا .

وكان تيمور في هذا الوقت يعمل على تنظيم الشؤون ، في مملكة الترك ينتخب لها العمال ويستقبل السفراء والوفود ، التي كانت ترد

إلى بلاطه من جميع المواطنين ، وفي هذه الفترة توفي بايزيد « بالصاعقة »
وأخذ تيمور يـفـكـر في فتح جديد . . ولكن نزل به مصاب لم يكن
يتوقعه فإن ولده الأمير محمد توفي أثر الجراح التي أصابته في معركة أنقرة
فأمر تيمور عندئذ جنده بالعودة إلى سمرقند .

لقد خسر تيمور أولاده الواحد بعد الآخر ، فتوفي « فاتح العالم »
ولده الأول ، ثم « عمر شيخ » وقد أظهر « ميران شاه » إنه غير كفء
لإدارة الأعمال والقيام بمهام الدولة .

وأما « شاه روك » فقد كان منذ نشأته ناعماً هادئاً لا يـفـكـر في شئون
الحرب وأمور السياسة ، ولذلك كان الأمير محمد مطمع تيمور ومعبود
الجيش لشجاعته وجراته وحسن أخلاقه .

وحملت جثة الأمير الشاب الذي قتل في ساعة النصر إلى سمرقند
تحرسه فرقة التي كان قائدها ، وقد لبست السواد عليه ، واستمع تيمور
بكاء (خان زاده) والدة الأمير محمد وعويلها ساكناً هادئاً ولكنه
لم يتمكن من أن يتمالك عواطفه عند ما أبصر حفيده الصغير ابن محمد
ينتظر قدوم والده خارج تبريز ، فأطلق عند ذلك لشجونه العنان وراح
ينفرد في جناحه الخاص لا يكلم أحداً ولا يجلس إلى أحد .

ويعود هذا الفاتح التتاري بالفكر إلى أيامه الماضية فيجد أن
هناك قوة أعظم منه كانت تأخذ منه وتعطيه ... فإن أكثر الأمراء
الذين ساروا معه في أول فتوحاته قد أصبحوا تحت الأرض ، وقد قام
مقامهم أولادهم وحفدتهم . ومن يدري فقد يكون تيمور يـفـكـر بنفسه

ومصيره ، وأنه لا يبعد أن يتبع من سبقه من أنصاره وأعوانه .
ولكنه كان يفكر أيضاً بامبراطور الصين المتحصن خلف جداره
العظيم القوى ، وكان يرى أن ملكه ليس مستقراً مادام هذا الإمبراطور
على عرشه ، ومادامت سلطة تيمور بعيدة عنه لا يعترف بها ، ولا يقبلها .
ولكنه لم يتحدث إلى قواده بما يحول في فكره بل انصرف يدبر مهام
الملك وينظر في شئون الدولة في الأشهر التي قضاها في تبريز قبل أن
يعود إلى سمرقند .

ولما وصل إلى عاصمته أمر بإنشاء قبر عظيم لابنه الأمير محمد ، وكذلك
أمر البنائين بإنشاء قصر جديد تكون حجارتها بيضاء لامعة ، وأحس
في نفسه قوة جديدة فراح ينظر في ماجرى في غيابه وما قام به نوابه من
الحسن والردى ، فأمر بقطع رؤوس بعضهم وكافأ البعض الآخر من
المخلصين ، وقدرهم وأعلى شأنهم .

ومضى تيمور في سمرقند سنتين أخذ يدب الوهن فيها إلى جسمه
فقد كان بلغ السبعين من عمره ، فبدأ الضعف يأخذ بصره ، والمرض ينتابه
من حين لآخر ، ولكنه كان يجد الوقت لاستقبال الوفود التي تزوره
في قصره ، ومنهم وفد ملك كستيل الإسباني ، وقد وصف كلافيو رئيس
الوفد مقابلته لتيمور كما يأتي :

« ترك السفراء في ٨ أيلول مقرهم الذي خصص لنزولهم إلى

سمرقند - وهذا يعنى أنهم خارج المدينة - فلما وصلوا إلى حدائق القصر تقدم إليهم بعض رجال الحاشية وطلبوا منهم أن يسلموا إليهم ما يحملونه من الهدايا إلى تيمور ففعلوا وذهب هؤلاء بالهدايا المذكورة ليقدموها إلى تيمور نفسه بكل احترام وإجلال .

ومدخل الحدائق جميل جداً يبهج النظر ، وعلى الأبواب وقف كثير من الخدم ، وقد رأى السفراء بعض الفيلة وحولها الموكلون بالحفاضة عليها . وكان بين السفراء مندوب تيمور نفسه إلى بلاط هنرى الثالث ملك إسبانيا ، وقد ضحك منه أصدقاؤه القثار لما أبصروه لابساً ملابس الإسبانيين أنفسهم !

ثم أخذ السفراء إلى الجناح الخاص بأبناء تيمور حيث قدموا الكتب التى يحملونها من ملوكهم إلى تيمور ، فأخذها أحد أبنائه وذهب بها إلى غرفة تيمور نفسه ، فسمح هذا بدخول السفراء إليه ومقابلته .

وكان تيمور جالساً على الأرض المفروشة بأنواع البسط الشرقية الجميلة وأمامه حوض تندفع مياهه إلى السماء بقوة عظيمة ، وملابسه من الحرير وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة .

وتقدم الأمير نور الدين فأخذ بيد السفراء إلى مجلس تيمور لأن تيموراً كان يريد النظر إلى وجوههم عن قرب لضعف نظره .

ولم يقدم تيمور يده للسفراء لتقبيلها لأن ذلك لم يكن من العادات

المتبعة ، وإنما راح يسألهم عن ملوكهم وخص بالذكر هنرى الثالث ملك كستيل قائلا :

- كيف حال ابنى الملك ، وهل هو فى صحة جيدة ؟ .

ثم نظر إلى من حوله من الأمراء والقواد وقال :

- هؤلاء سفراء ابنى ملك إسبانيا الذى هو أعظم ملوك عصره والذى

يملك فى الشطر الثانى من الأرض .

ثم أمر بفتح الكتاب المرسل إليه من الملك قائلا :

إنه يريد قراءته والتعرف على مضمونه حالا .

ولما انتقل السفراء إلى حجرتهم ثانية جعل بعض رجال تيمور

مقامهم دون مقام سفراء ملك الصين (قاتاي) ، فلما رأى تيمور

ذلك أمر بتقديمهم على سفراء ملك الصين لأنهم يمثلون صديقه ملك

الكستيل ، وأما سفراء ملك الصين فكانوا سفراء لص ردىء

الأخلاق ! ؟

والواقع أن تيموراً كان كثير الصراحة فى حديثه عن ملوك زمانه

ورجال عصره ، وإن كان كثير التجميل فى وعوده ، لا يحافظ عليها

إلا نادراً ، وفى حديثه عن سفراء ملك الصين مايدل على رغبته الملحة

فى محاربتهم ملية-كهم وغزو بلادهم ، وهو ماأقره بعد أشهر فقط من هذا

الحوار .

وفاة تيمور

لقد كانت سمرقند في نظر سفراء ملك إسبانيا موطنًا جميلًا مدهشًا حقًا ، حتى ليحدثنا (كلافيو) بأنه رواح يعتقد أن في العاصمة بعض الجن ! ينشطون فيها إلى ألوان المرح ويعملون على تزيينهما وتجميلها بما لا يستطيع قلم كاتب وصفه ، والواقع أن سمرقند في هذا العصر ، عصر السيطرة التتارية المغولية على الشرق كانت عاصمة العالم كله . يقصدها التجار من أقصى الأرض ، وتمر القوافل منها إلى جميع أنحاء العالم .

لقد كثرت بساتينها وزادت عمارتها زيادة مدهشة ، وبلغ عدد سكانها مئات الآلاف ، ومشى في شوارعها أصناف الناس وأشكال المخلوقات ، وكل هذا كان من صنع تيمور وعمله ، فهو الذي أمر بإنشاء القصور ، وهو الذي أشار بالعناية بالحدائق ، فلم تقم سمرقند ، ولا استطار شأنها ، وبلغت ما بلغت من العظمة وزيادة العمران إلا برأيه وإرادته .

وطلب تيمور يوماً الأمراء والقواد للتمول بين يديه فلما مثلوا خاطبهم قائلاً :

« لقد فتحنا العالم كله ، ولم يبق أمامنا غير بلاد الصين ، وقد كنتم رفاقي في كل الحروب التي قمت بها ، وتعلمون أن النصر كان دائماً في ركابنا ، والقضاء على الوثنيين في الصين لا يتطلب جهداً ولا كبير مشقة ، وهذا ما سنقوم به » .

ولعل تيمور كان يريد من هذه الحرب الجديدة أن يهدم السور الذي كان يقوم حول البلاد الصينية ويفصل بين بلاده وبينها . فقد عودنا تيمور في تاريخه أن لا يترك حصناً قائماً ولا عمارة واقفة ، ولو كانت في أقصى الأرض ، وليس قيامها خطر عليه ولا على مصابر الحكم في الإمبراطورية ، فكيف يسكت عن جدار يقوم على مقربة من حدوده ، ولا يبعد أن يندفع من في داخله إلى أرضه وبلاده يبتغون فيها غزواً وسلباً ، وقد قامت مملكة تيمور على التضحية وحب قواده وجنده لشخصه كما قدمنا ، لذلك نرى أنه ما كاد تيمور يحدّثهم بهذه الكلمات ، ويخبرهم بعزمه ، حتى راحوا يطلبون منه التشمير والزحف ، مع أنهم كانوا بحاجة إلى الراحة والاطمئنان وإلى ملذات الحياة بين أهليهم وعيالهم ، وليست الأسابيع القليلة التي قضوها في سمرقند بعد رجوعهم من غزو البلاد العربية والتركية كافية لتذهب عنهم مآلهم بهم من نصب الزحف ومشقات الحروب .

ولكن تيموراً وقومه كانوا رجال حرب و بطش وسفك دماء

وليس في أفكار جماعة كهذه تعودت على هذه الحياة واطمأنت إلى مصايرها فيها وما يتوافر للفرد منها في كل حرب من مال وثناء ، أن تسكن إلى النعيم والاطمئنان .

وكان جيش تيمور الذي زحف به على الشرق الأدنى لا يزال مقبلاً حول سمرقند ، فما هو إلا أن يأمر تيمور حتى يزحف الجيش ويمشي إلى الحرب جذلان فرحاً .

وكان الزحف أمراً مقصياً فمشى تيمور على رأس جيش عدده مائتا ألف مقاتل نحو الصين . مقسماً إلى أقسام يقود كل قسم أمير من أمراء تيمور المعدادين ، وتقدم الجيش وقد حمل معه من الذخائر والأقوات ما لا يحصى عدده ، فقد ذكر في فصل سابق نفاذ الأقوات لما زحف تيمور لغزو المغول المقيمين في روسيا - أي سيبيريا وأكرانيا وبلاد الترك - وكيف قلّت المؤن ونزل بجنده مشقات كثيرة ، لذلك رأى تيمور والحالة هذه أن يأخذ أهبطه ، فلا يقع في مأوئ فيه قبلاً ، فاستعد للأمر أكمل استعداد وحمل معه كل ما هو بحاجة إليه ، والذي لا يكون بميسوره أن يجد منه طريقه وزحفه ، لذلك كانت قوافل الغذاء والعدد كأنها مدن متحركة تسير خلف الجيش ومعها كل حاجات الجيش من الذخيرة والأقوات .

وكان البرد شديداً والثلج ينزل مدراراً و-اكن تيمور لم يكن
من الرجال الذين تقف في وجوههم حوادث الطبيعة فقد أخذ يسير
بجيشه لايلوى على شيء .

هذا الزحف المتعب الجبار ، كان يعوق سير الخيل والبغال التي
كانت تحمل الذخيرة والأقوات كثرة الثلج وأصبحت الأرض ناصعة
البياض ، فاضطر حفظة الذخائر إلى وضع الأمتعة على الأرض لي-كون
بتقدور الخيل أن تمشي ومعها الذخائر ، فلاتغرز في الأرض ولاتضطرب
في الثلوج وهذا كان يتطلب عناء وجهداً عظيما .

و-اكن الجيش وصل إلى (اوترا) وهو الم-كان الذي قرر تيمور
قضاء فصل الشتاء فيه ، ثم الزحف في الربيع على الصين ، بيد أن تيمورا
لم يعيش ليرى زحف جيشه في الربيع فقد توفي قبل تحقيق هذا الحلم .
وانتقل هذا الملك الجبار الهائل إلى العالم اللانهائي .

* * *

تقول المصادر والروايات القديمة أنه لما مرض تيمور ووقع في غرفته
في (اوترا) كان رجاله وقواده يقفون الساعات حول غرفته وخارج
قصره ، في البرد الشديد ، والثلج يغمر أرجلهم ويسقط مدرارا على
رؤوسهم .

وكانت الإمبراطورة (سارى هانم) فى القاعة الكبرى وحولها
وصيفاتها ، وكانت قد جاءت من سمرقند لما علمت بمرض تيمور .

ووقف أمام غرفة تيمور الأئمة والعلماء يتلون آيات القرآن ويطلبون
من الله الشفاء للملكهم وأميرهم ، وقد ظلوا على حالتهم هذه الأسابيع
يطلبون من الله الرحمة ، فلم يجدهم كل هذا نفعاً ، وظهرت أمارات الموت
على تيمور وقال الطبيب لما طلبوا رأيه فى مصير الملك « إن المريض
العظيم لم آبه » .

وأما تيمور فلما أحس بقرب أجله قال لرجاله وقواده :

« عليكم بال جيش فحافظوا عليه ، واعملوا على اتفاق كلتكم ولا تخاصموا
فتفشلوا ، وسيروا نحو الصين ولا تتراجعوا . .

« ولا تميزقوا أثوابكم بعد موتى ، ولا تركضوا من هنا وهناك فإن
هذا يحدث الاضطراب فى الجيش » .

وضعف صوته فأصبح خافتاً ضعيفاً .

ثم أشار تيمور إلى نور الدين وشاه روك بالاقتراب منه وقال لهما :

« إني أعين بير محمد - ابن فاتح العالم - أميراً من بعدى
وخليفتى ، وليكن مقره سمرقند ، وله الحكم المطلق على الجيش
وشئون الدولة ، وإني آمركم بأن تخلصوا له كل حياتكم وأن

تساعدوه في حكمه . وإذا لم تطيعوه إطاعة تامة فإن الاختلاف والانقسام واقع بينكم .

وأقسم الأمراء والقواد ورجال الدولة أمامه بالطاعة لخليفته ثم طلب تيمور بقية أبنائه فأخبرهم برغبته ووصيته ونصحهم بالاتفاق والتفاهم والعمل يداً واحدة .

وكان ذلك آخر حديث لتيمور مع أبنائه وقواده وما لبث أن أسلم الروح بعدها بدقائق ، فعلا بكاء رجاله ، ونحيب نساته ، وأصوات العلماء تقول :

لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

النقط البارزة . . في سيرة تيمور

يقف تيمورلنك في التاريخ بين فريقين من المؤيدين والمعارضين ، يضعه الأولون في الصف الأول من عظماء القادة في جميع العصور ، بينما يضعه الآخرون في الدرك الأسفل بين المجرمين القتلة وهاتكي الأعراض والكرامات .

ومجمل مزايا تيمور التي رفعتة في أعين مؤيديه أنه كان رجلاً عصامياً صنع مجده بيده وجعل لنفسه هذه المكانة الكبرى في التاريخ بفضل شجاعته وذكائه وبراعته في القيادة ومواهبه التي جعلت منه حاكماً لمملكة واسعة الأرجاء أحسن سياستها وأعز شأنها .

ومجمل مساوئ تيمور أنه اتخذ سبيله إلى المجد الشخصي على جثث ضحاياه وأنقاض المدن الزاهرة التي داسها بحوافر خيله ، وأنه خالف طبيعة الجندي الأصيل الذي يخوض الحرب في معتركها وحسب ، أما تيمور فقد راح يدرك المدن ويحرقها ويعتدي على حرمتها ويسلب أوقاتها ويهدر كراماتها ، ثم يتسلى بصنع أهرامات من جماجم البشر . . ! ؟

شخصية متناقضة ، وتاريخ حافل بالأبجاد . . والسواد !
فذلك الشاب المملوء حماسة ووطنية ، الثائر لما وقع لعشيرته من

مهانة ، وقع فيما ناز من أجله وأخذ يصنع في العشاير الأخرى أضعاف
الويلات والمصائب التي حدثت لأهله .

والقائد البارع الذي قاد جنوده السذج إلى الانتصارات الرائعة
في حليبات القتال ، قد نزل عن مكانته الرفيعة كقائد عظيم لما أطلق
جنوده في طرقات دمشق و بغداد يتلهون بسفك الدماء وسلب الأعراض
وهتك حرمت المساجد .

والحاكم القدير الذي أدار شئون بلاده في حذق وتفوق فجعلها
طريق التجارة وملتقى الحضارة قضى على بلاد أخرى كثيرة بالخراب
والدمار فنزع عنها أسباب نهوضها وأعادها إلى القرون الأولى .

والمهندس الموهوب الذي جدد عاصمة بلاد فزينها وزخرفها بأبداع
ماوصل إليه الفن ، وجعل فيها الميادين الفسيحة والحدائق الغناء والقصور
والمساجد والمتاحف ودور الكتب ودور الملاهي والملاعب قد أفسد
مكانته الهندسية بما فعله برءوس ضحايه حين جعلها في أهرامات شاخنة
تشهد بغيه وتحث بحقاره نفسه وعدم إنسانيته !

والمسلم الذي كان يقول « أنا عبد الله تيمور » والذي شيد مسجداً
في سمرقند يحوى ٤٧٠ عموداً من الصخر المصقول ويزهو بما فيه من
رخام وأحجار كريمة ومنبر من الذهب والفضة .. هو نفسه الذي جعل
جنوده يدوسون المساجد ويرتكبون فيها المنكرات .

وبعد ، فقد يصف بعض المؤرخين تيمورلنك بأنه قائد عظيم ،
- أو على حد قول بعضهم - أنه أعظم الغزاة وأكبر الفاتحين ! وقد يصفه
البعض بأنه حاكم قدير استطاع أن يجعل من التتر شعباً موحداً ودولة
قوية الشأن إلا أن الهمجية التي اندفع فيها تيمورلنك والفتاعة التي
عامل بها الشعوب الأخرى لطخت بالأوحال والحمازي صفحته وطغت
على معالم شخصيته فجعلت الخطوط الرئيسية فيها العسف والإرهاب
والقتل والتدمير والابادة والفساد والهمجية .

إن الرجل الذي قيل عنه إنه قهر العالم أخفق في قهر نفسه وأخفق
في توجيه شعبه ، فعاش حياته كئييباً وقضى على دولته أثر موته .
ومهما يكن من أمر براعته الحربية وشدة دهائه وجرأته وأخذه
بمبادىء ونظريات حربية رائعة فإنه لم يكن الجندي الذي يستحق
التقدير والتوقير فقد نزل بمستوى سيفه وجعله في الحضيض .

وكان الأفضل لدارس التاريخ الحربي أن يلم بإحدى معارك تيمور
في معترك القتال فيشهد فنونه في تقدير الموقف ووضع الخطة وتنفيذها ..
وحسب ! وكان هذا كفيلاً بالمجد للقائد تيمور . . أما خوض عشرات
المعارك وفتح البلدان فلا يجعل للقائد قيمته مادام قد تجاوز الحدود
وهبط عن مستوى الجنود ونزل إلى حضيض القتل وقطاع الطرق
وناهي الأعراض .

فإذا ما أردنا تمجيد تيمورلنك فإننا نفعل ذلك في حدود أعماله العسكرية أى في نطاق العمليات الحربية فقد كان ابن بجدتها وفارس حلبتها وقد عمل بجماع المبادئ السليمة ، بمحض فطنته وألمعيته ، وكان القائد المنتصر في كل معركة خاضها ، وكان القائد الفطن في كل تقدير للمواقف التي واجهها ، وفي كل خطة وضعها .

ولن يغفر ذلك كله لتيمورلنك ما فعل ، فقد كان ظاهرة شاذة وشخصية على غير نظام وقياس . . . إنما القائد الحق هو الذى يعرف للقيادة حقها وتقاليدها ، ويعرف للجندية معانيها وغاياتها . . . وهى تلخص في تحقيق السلم ، ورفع الظلم ، ورد الاعتداء عن الأهل والوطن . ومهما يكن من أمر تيمورلنك ، وما أحصيناه له من الأنجاد الحربية ، فإنه لا يستطيع أن يقف في وصف القادة الأطهار البواسل الذين استولوا سيموفهم لتحرير أوطانهم ، أو الدفاع عن معتقداتهم ، ولم يكونوا معذبين في الأرض أمثال الاسكندر المقدوني الذى ترفع - وهو في أوج الشباب وقمة النصر - عن مقابلة زوجة خصمه المقهور داريوس ملك الفرس ، والذى ترفق بخصمه المهزوم بوروس ملك الهند فسأله عما يريد وأجابه لما أراد ، فعامله معاملة الملوك .

ولم يكن مثل جورج واشنطن ، الذى دعت به بلاده إلى قيادة جيشها حين ألم بها الخطر فظل قائداً للجيش الأمريكى سبع سنوات

بغير أجر حتى انتصر على أعداء بلاده ، فلم يحارب إلا دفاعاً عن
وطنه وصيانة لاستقلاله ، حتى إذا حقق الهدف خلع رداءه العسكري
وعاد يعيش في مزرعته تحت ظلال السلم .

وماذا فعل نابليون بجانب ما فعله تيمورلنك ، وقد كان نابليون
عبقريّة حربيّة قليلة النظير ، ولكنه كان إنساناً تسيطر عليه شهوة
المجد الشخصي ، فأضاع في سبيل ذلك زهرة شباب أوروبا ، دون أن
يكون هناك مبرر ، فقد انتهت مهمة السيف عند ما حقق سلامة فرنسا
واستقلالها .

حتى جنكيزخان الذي قاد الوحوش الضارية من مجزرة إلى
مجزرة ، لم يصل بمساوئه إلى ما وصل إليه الطاغية الأعرج .
وأخيراً ، ما الذي كان يقصده تيمور ؟ .

هل كان حقاً يقصد رفع الظلم الذي نزل بعشيرته . . . في
المدينة الخضراء ؟ .

لا بأس به من غرض .

وهل كان يطلب أكثر من هذا ؟ ، كأن يصبح التتار شعباً
ودولة ؟ . . .

لا بأس . . أيضاً ، فله الحق في ذلك .

وهل كان عليه أن يحافظ على سلامة هذا الشعب ، وكيان هذه الدولة فيصد المعتدين عليها .

وهنا أيضاً . لا تثريب عليه إذا هو فعل ، بل أن واجبه أن يصد كل اعتداء ، ويمحق كل محاولة للنيل من حقوق شعبه واستقلال بلاده .

وإلى هنا . . ولا نجد أهدافاً أخرى .

فلماذا إذن اتجه تيمور إلى البلاد العربية فدمر دمشق ، وبغداد ، وأسرف في القتل والهـدم ، وسفك الدماء ، وهتك الأعراض ودوس الحرمات ؟ ! .

ولماذا كان تحرشه بالترك الذين كانوا يثبتون قدم الشرق إزاء اعتداءات الغرب . . وماذا جنى من هذا النصر والطغيان ؟ .
لاشئ . .

لاشئ ، ولهذا فإن كل ما فعله تيمور طيلة حياته قد انتهى بانتهاء حياته ، ودالت دولة التتار لأنها قامت على الأطماع الهوجاء ، ولم تقم على دعائم الحق والنظام والعدالة والحرية .

مؤلفات البكباشى السبر فرج

القيادة والقادة العظام
مع العسكريين
جيشنا فى فلسطين
أسلوب واضح البلاغة أنيق الصباغة مع قوة فى العرض
وبراعة فى الأداء . . . الرئيس جمال عبد الناصر .
ولست أشك فى أن القراء سيحصلون منه فائدة ويستثمرون
أثراً حميداً . كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم
آية من آيات العزة القومية والتجديد للجندية .
المواء محمد شريف

حرب الصحراء المصرية
الدفاع عن الوطن .
لم بمقدمات هذه الحرب وأطوارها ، وقلما اتصت
بالحرب مسألة إلا كان له إلام بطرف من أطرافها . .
الأستاذ عباس محمود العقاد
يكشف عما تحتاجه مصر لاستكمال الدفاع عن كيانها فى
عبارة صريحة دقيقة متزنة

القائد الجيد
يسر مدير المشاة كما يسر كبار ضباط المشاة أن يكون
الفائز الأول فى مسابقة الموضوعات العسكرية : الصاغ
السيد فرج « كتاب إدارة المشاة فى ٤/٧/١٩٥٣ » .

و

فى شمال أفريقيا
الهجوم على أوروبا
العالم بعد الهدنة
حروب محمد على
هذه هى الحرب
أحاديث فى الحرب
أبطال العالم فى الملاكمة
الرياضة فى بلادنا